الكف المبتور

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١
هاتف : ٠١٠٠٠٣٢٨٨٥٩٦
بريد إلكتروني : gmail.com@yahoo.com@Dream.pen٩٢

الكف المبتور (رواية)

أحمد العدل
الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠ م
رسم الغلاف: هند حسني
تصميم غلاف : ثروت العدل
تدقيق لغوي: الاء العزاوي
تنسيق: أحمد العدل
رقم الإيداع : ٢٠٢٠/٢٢١٩٧
I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٤-٦١-٠

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

الكف المبتور

رواية

أحمد العدل

إهداء خاص..

أشكرك على تحمل خيباتي طيلة سنوات طويلة والتي لن أعللها بأني إنسان، كلا!

تعرف جيدًا كم كنت متخاذلًا! كم كنت نباتًا متسلقًا أنمو على كتف الغير! أنمو على كتفك أنت. كنتَ فيها خير قرين تحمل إنسانًا.

على الرغم من أننا نسكن الجسد ذاته إلا أنك كنت دائمًا مختلفًا عني، وجعلت مني شخصًا آخر بين السطور لأظهر للناس بتلك الصورة. كنت دائمًا تقف خلف الستار حينما يمدحني الناس على الرغم من سخريتي من ذلك حيث لم يعرفني إنسان في تلك الحياة سواك أنت. لم يفهمني سواك أنت. لهذا اكتفيت بك أنت.

اليوم لن أنكر ذلك، لولا وجودك في عقلي لما كانت تلك الحروف فمن بعد فضل الله أدين لك بالفضل.

سعدت كثيرًا طيلة تلك السنوات لأنك داخلي، كذلك من دواعي سروري أن أهديك تلك السطور التي كتبتها معي وشاركتني رحلتها حتى أبحرت السفينة، فإن أكملت طريقها فلتكن سفينتك وإن ذهبت من هنا فليبقَ اسمك! أنت بين الناس حامل تلك الرسالة.

إهداء من الكاتب لقرينه.

اهداء..

من بائسٍ حطت قدماه على تلك الأرض دون هوية، أنتِ وجهته الوحيدة ومصدرٍ قوته. حاولت أن أفعل من أجلكِ شيئًا جميلًا تفخرين به لكنني لم أجد ذلك الشيء الذي يجعل مني فخرًا لكِ. حتى مع فخركِ بي ودعمكِ، سامحيني على تخاذلي فربما في الغد نور أقدمه لكِ.. إلى أمي العزيزة.

إلى الشموع القليلة التي تضيء عتمتي.. أنتم من أوصلني إلى هنا ولا يكفي أي شكر.

إلى ملاكي الحارس.. أشكرك من القلب

إليكم جميعًا.. أهديكم الكفّ المبتور.

تمهيد

بلبيس، هاتور عام ٨٣١ ميلادية...

إنها تمطر مبكرًا هذا العام لكنه ليس المطر الذي يُشبع جوف الأرض! وكأن السماء تركض فتساقط عن جبينها بعض قطرات العرق!

«إنه عقاب الرب لا محالة»

جلس (بخاتي) على الأرض ولسان حاله يردد تلك الكلمات، محاولًا التقاط أنفاسه بعد شوط طويل من الركض في الأحراش حتى وصل إلى نهاية تلك الأرض القاحلة إلا من بعض سيقان الغاب والبوص والقليل من الحشائش الذابلة لقلة الماء بعد صيف حارق.

على الرغم من قوة بنيانه إلا أنه كان منكمش الجثة وكأنه تكبب داخل خرقة من الملابس ممزقة رثة يختبئ من قدره. كان يلتفت خلفه بين الحين والآخر، وكلما سمع صوتًا يقترب حاول إخفاء جسده الطويل بين سيقان الغاب البارزة فسرعان ما يهدأ حينما يمر الصوت.

لم يتمالك نفسه بعدما نظر لهيئته المنهكة فأجهش بالبكاء، ينتحب لحاله ناظرًا إلى السماء، قائلًا:

«لماذاااا؟ لو لم تغفر لي الخطايا ما ذنب الأبرياء؟ لماذا سلبتني كل ما أملك وجعلتني أغدو طريدًا؟ لماذا؟»

هام على وجهه وهو يبكي ولم يشعر بالدنيا. كان الطقس يحمل على أجنحة رياحه قبيل شروق الشمس بعض البرد كطبيعة هاتور، وقطرات المطر الخفيفة

المشتتة بفعل الهواء لم تكن عائقًا لذلك البائس أن يمضي في نحيبه. بسط يديه أمامه لينظر فيهما مع أول ضوء، وبدأ جسده ينتفض وبقوة كأنه صُعق ثم أغلق كفّ يده اليمنى وأخذ يضرب بها الأرض وهو يصرخ قائلًا:

– اللعنة عليك أيتها الأرض الملعونة! اللعنة على تراب يراه العميان ذهبًا! اللعنة على ذلك الدم الذي لا يشبع ولا يقف! سحقًا لكم أيها العرب! اللعنة عليك يا بشاي، اللعنة!

لم يشعر بسبب كمّ الحزن المسيطر على نفسه بيده التي تورمت وبدأ خيط الدم يسيل منها بعد ضرباته القوية ثم نظر إلى السماء وصرخ بصوت كاد يشق الأرض لقوته. على الرغم من تلك الحالة البائسة إلا أن النيران كانت تشتعل داخله كلما مرّ عليه ذلك الطيف، والغيث من عينيه يروي الأرض. قال بلهجة حادة يملأها الغضب:

– لن أحترق بتلك النيران وحدي. ليكن حدَّ السيف فاصلًا بيني وبينكم ما حييت.

خارت قواه رويدًا رويدًا وكأن روحه بدأت تنسحب. عقله غادر تلك النقطة ليعود حيث البداية.

الفصل الأول

« أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك! ليأتي ملكوتك! لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض! خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أَيْضًا للمذنبين إلينا! ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد.. آمين!»

أنهت صلاتها لتبارك الطعام الذي حملته بين يديها وهي تقف أمام شجرة اعتادت على أن تستظل بها وقت القيلولة، وما أن انتهت من التصليب حتى رفعت رأسها قليلًا. وكأن الشمس أشرقت من خلف غيمة عابثة بسبب ذلك الوجه الأبيض اللامع الذي يعكس الراحة.

تحركت بضع خطوات وهي تصلح وضع وشاح خفيف كانت قد أسدلته على رأسها لتخفي سلاسل الذهب التي زينت ذلك الرأس ثم ابتسمت في خجل وهي تنظر إلى ذلك المنهمك في عمله الذي حينما رفع رأسه ووجدها، قال:

– بولخاريا!

تقدمت نحوه في خجل ولا تزال ابتسامتها تزين ثغرها. ترك الفأس من يده ثم همّ مسرعًا تجاهها. ما إن اقترب حتى أمسك كفيها وقبّلهما ثم نظر إلى عينيها في تودد قائلًا:

– ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت؟ لقد اقترب موعد الوضع ويجب أن تبقي في الفراش حتـ..» قاطعته وهي تضع إصبعيها على فمه قائلة:

– الصغير يتكور كثيرًا في أحشائي وكأنه يبحث عن والده. أتيتك به لربما يهدأ.

قبَّل إصبعيها في حنان ثم وضع يمناه على بطنها وهو ينقل عينيه ما بينها وبين عينيها والابتسامة تزداد دليل فرحه. أبقى كفه عليها بعض الوقت وكأنه يتحدث مع صغيره ثم رفع عينيه، يتأملها في صمت. كان دائمًا يشكر الرب على تلك الهبة التي لم يكن الحصول عليها سهلًا حيث كانت بولخاريا رمز الجمال والحكمة في كورة بلبيس كلها، ومحط اعجاب أهلها، ومطمع شبابها! والأكثر من ذلك أنها كانت مطمعًا لبشاي، الأخ الأكبر لبخاتي لكنه لم يكن على علم بذلك إلا يوم عرسهما.

ما فعله بشاي في رقصاته وحركاته الغريبة وهم في الطريق إلى البيعة لعقد العرس، حتى ظن أبانا أنه سكران طافح، فهو لم يكف عن الدوران والغناء حتى اقتربوا من باب البيعة والشمامسة ينتظرون دخول موكب العريس.

نظر إلى عيني أخيه وهو يتمايل أمامه قائلًا:

– كان يجب أن أكون أنا، لا أنت.

ضحك بجنون وهو يدور حوله، وما إن وصلوا باب البيعة نظر خلفه فلم يجده. اقترب منهم الشمامسة، يحملون الشموع والأجراس مباركين فقادوا بخاتي معهم حتى الخورس الأمامي وهو لا يزال غير مستوعب ما حدث. «هل كان بشاي يرغب ببولخاريا؟»

أخذ السؤال يبطش بعقله لكن قاطعه صوت الأجراس معلنة وصول موكب العروس، وما إن نظر صوب الباب حتى شاهده يقف على مقربة من موكبها ويقترب منها ثم نظر نحو بخاتي ودخل البيعة من خلفهم.

لم يغب عن باله مذ تلك اللحظة أحقاد بشاي، وتبع ذلك ابتعاد الأخ الأكبر وانشغاله بعالم الهرطقة وحياة الطمث العلماني التي كان يحياها باحثًا عن الملذات والسير مبتهجًا منتشيًا في طريق الشيطان.

على الرغم من علمه بأن أخاه لم يكن يُكِنّ له الحب منذ الصغر لكن من بعد الزيجة زاد الأمر إعراضًا وبعدها فجوة. ربما كان سبب ذلك هو أبوهما ومحبته الزائدة لبخاتي فقد كان بخاتي المقرب منه، يعوّل عليه في كل شيء لفطنته وطاعته، فضلًا عن قوة بنيانه التي جعلته يحمل الكثير على عاتقه من أعمال الفلاحة بعدما ساء حال الأرض مذ دبّ العباسيون أقدامهم على تراب مصر فأرهقوا الفلاحين بالخراج، ما جعل بعضهم يهجر الفلاحة فزاد الفقر وساء الحال، فضلًا عن الجزية التي كان يؤديها الأقباط فكانت سببًا في تغيير البعض مِلّتهم هربًا من دفعها أو لجوء البعض الآخر إلى البيعة لخدمة الرب.

بينما كان بخاتي يعمل جاهدًا لإطعام أهله كان بشاي يتسكع بين هذه وتلك، ويسرف في تناول الخمر الذي كان سببًا في بُغض أبيه له. زادت تلك الأحقاد لتصبح حفائظا في نفس بشاي.

لاحظت بولخاريا أنه شرد في شيء فأمسكت يده كي تلفت انتباهه لوجودها قبل أن تقول:

– ما الذي حدث؟

التفت إلى الأرض، يتفحصها دون أن ينطق ثم تنهد في حسرة قبل أن يقول:

– أخشى على ولدنا مما نحياه. الموت يحيط بنا من كل جانب، الفقر يسير في الطرقات على جواد يصهل أمام كل باب. ذبُل الزهر وجف النهر والخراب على أيدي العباسيين يفرد أجنحته في كل مكان. نشكر الرب على ما ينعم عليه بنا من حنطة وإلا مُتنا جوعًا.

وضعت يدها على ذراعه المفتولة وهي تحاول أن تذكره بوجودها جواره ثم قالت له:

– نشكر الرب على نعمه وفضله. لا تدع كل ذلك يسحب روحكَ نحو الحزن فحالنا أفضل من كثير.

التفت لينظر إليها هو يقول بانفعال:

– مع كل هذا الظلم نحن بخير. انظري إلى ذلك الوحل وكيف أصبح! تلك أرضنا وأرض أجدادنا وأسلافهم، كيف كانت وكيف أمست؟ لم يتبقَّ منها شيء يُصلحها. منذ أن وطئت أقدام أهل الصحراء تلك الأرض لم يصح لها زرع ولم ننعم بخير ضرع ولم يبقَ لنا إلا فتاتًا نأكله في حرص، فقط كي نحيا.

ثم استطرد بعدما حوّل نظره صوب خصرها قائلًا:

– وهذا الطفل، أخشى عليه من تلك المجاعة التي نحياها. الرجال يبيعون

فلذات أكبادهم لسد بطون العرب، وما أن تكتنز أحشاؤهم بقوت الضعفاء حتى يسيل لعابهم بحثًا عن الملذات فيهتكوا الأعراض ويسبوا النساء عنوة. أي حياة تلك يا بولخاريا؟

تركته يفيض بما يحمل من تفكير على الرغم من علمها بكل ذلك، وخوفها مما يخافه وربما أكثر، فكثيرًا ما طرق باب عقلها سؤال مخيف، ماذا لو حدث له مكروه؟ هل سأصبح سبية لأولئك؟ الموت أهون من هوان الرق حتى وإن كان معصية فقتل النفس قبل الرق حلّ.

تركته ينهي حديثه وهو يدور حول الأرض ناظرًا لذلك الوحل وما آل إليه ثم اقتربت منه في هدوء، وما أن وصلت خلفه تمامًا حتى توقفت وقالت:

– أعلم أنكَ محارب ولن تقبل ما سأنطق به لكن الرهبنة تعفينا من الجزية مدى الحياة[1]، وسنبحث عمّن يهتم بالأرض دون أن يدري أحد. ربما كان هذا هو ملجأنا أو هو رسالة السيد والبتول لنا. لقد أصبحت أخشى كثيرًا عليكَ.

التفت صوبها بسرعة وقال:

– وهل سيحمينا حقا الإكليروس؟ كيف سيفعل والبيعة ترسل بين الحين والحين رسلها للثائرين في أرض بشمور ومن تبعها من باقي كور مصر، تحثهم على وقف قتال العرب؟ وعلى الرغم من ذلك فنيران الثورة بدأت تدب في كل صوب من شمال مصر حتى صعيدها، وماذا عن أرضي؟ من أجل بضعة دراهم سأهرب وأترك تلك الأرض؟ لن يحدث.

١- كتاب أقباط و مسلمون (جاك تايجر) ص ٨٥

شعرت ببعض الخيبة بعدما قالت له ذلك فهي على علم تام برده من قبل أن ينطقه. هو صعب المراس ولن يترك طينه ويُغضب روح أبيه وأسلافه حيث ذهبوا لكنها كانت تتمنى أن ينصاع لطلبها. ربما يخفف من ذلك الهاجس الذي كاد أن يهتك بفكرها كل يوم. لا يوجد مهرب من ذلك فربما حالهما أفضل من الكثير!

لقد أصاب القحط أغلب البلاد، وسلب العباسيون قوت الشعب كما فعل أسلافهم من بني أمية ومن سبقهم من أسلاف عمرو وقبلهم البيزنطيين فكلما مرّ على تلك البلاد حكم جديد سعى بادئ الأمر إلى الإصلاح، وسرعان ما حنث بوعده وأرهق الناس جزية وخراجًا حتى ينفق على جيشه ظاهرًا، وباطنًا كان اشباع بيوتهم من مال الفقراء، فكل متولٍ لتلك البلاد لم يسعَ لإعمارها فكانت الولاية جباية لا إصلاحًا.

بضع ثواني من الصمت مرت دون حركة فكان كلاهما في عالم يفكر فيه. ربما كان ذلك العالم واحدًا لكن لكلٍّ زاويته التي أرقته واجتمع الاثنان تحت سماء واحدة، سماء الخوف.

رجعت بولخاريا صوب الشجرة لتجلب الخرقة الملفوفة التي تحمل الزاد ليأكلا سويًا، وما أن التقطتها حتى ذهبت بهدوء صوبه ووقفت أمامه ثم قالت:

– هون عليك! سيحفظنا الرب ببركاته وصلواتنا، ولا تنسَ أني معك! هيا فقد جلبت بعض الطعام. لا بد أنكَ جائع.

ابتسم في وجهها ابتسامة تكاد تكون مرسومة. طغى عليها الحزن ولكنها لم

تُعلق عليها ومرّرت له الخرقة. قبل أن يفتحها نظر صوب عينيها الحزينتين قائلًا:

– أشكر الرب في كل صلاة على نعمة وجودك.

ثم جذب يدها وجلسا على الأرض فهمَّ بفتح الخرقة فوجد فيها بعض البتاو والتمر والسمك المملح والسميذ المعجون بالعسل. ابتسم وهو ينظر للطعام ثم قال لها:

– لقد تذكرتِ السميذ أيضًا.

ما أن فتح الخرقة حتى بدأ يتلو صلاته وصلّب على صدره ثم قال:

– هيا لنتناول طعامنا! لا بد أن هذا الفتى جائع ولا يجب أن يشعر من الآن بمجاعة الدنيا.

ثم أتم تلك الجملة بضحكة عالية على عكس الموقف، وكأنه يسخر من الحال. تبعته هي الأخرى بضحكة مدللة فقد كان الموقف يبدو من بعيد جميلًا لكل من يراه، وكأن الأرض كانت تضحك لهما وأعين الطير تراهما وتبتسم إلا عينا واحدة، كانت تتابع كل ذلك من بعيد ولكن بروح يتملكها الغضب.

الفصل الثاني

الكره أعظم تأثيرًا على العقل من الخمر! القليل منه كافٍ جدًا ليُذهب المنطق ويُعميه عن الصواب، والأسوأ من ذلك أن الكره شيطان يوسوس دائمًا بالشر فلا يدع عقلك ينام، ولا يمنحه غير المؤامرات!

جلس بشاي في الماخور مع بعض رفاقه، يرفع كأس النبيذ وهو يزهو بحاله. صاحب ثياب مهندمة يبدو لمن لا يعرفه أنه من علية القوم وأغناهم في بلبيس لكن الثياب لا تخفي لمن يعرف ما تحتها. نهض من مكانه وهو لا يزال رافعًا كأسه، يترنح بجسده الضئيل ويده اليسرى على شعره الطويل يهذبه. اتجه صوب غانية تتمايل في خلاعة وتنظر إليه دون سواه، فهو صاحب المال الذي تركض من خلفه من على شاكلتها طمعًا في بضعة دراهم مقابل القليل من الوقت واشباع نزواته التي لا تهدأ.

كان يبدو للجميع أن الخمر عبث بعقله وجعله يترنح كالمذبوح هكذا. لم يدرك أحد منهم أن نيران الحقد أقوى ألف ألف مرة من أي خمر على عقل ذلك الشيطان! كان يضع صوب عينيه أخاه الأصغر بخاتي. منذ طفولتهما وهو يكن له الكره فقد كان المفضل لدى أبيه، المطيع الطيب أما بشاي فكان المزعج الذي لا يمر عليه يوم دون كارثة.

كان يرى استحسان والده لأخيه مصدر ازعاجه، وحاول كثيرًا أن يعكس تلك الصورة بنصب الفخاخ لأخيه الأصغر وتشويه صورته لكن دون جدوى.

حتى أنه ذات يوم سرق من بغل أبيه جرة فخارية فيها بعض السميذ المطحون قد جلبه لأحد الشمامسة في البيعة، حتى يوقع بأخيه فقد كان بخاتي يحب السميذ المعجون بالعسل.

ما أن اكتشف والده ذلك صرخ فيهما فأجابه بشاي أنه لا يحب السميذ ولا يأكله، ولا بد أن بخاتي من سرقه، فجن جنون والده وأخذ يسأل بخاتي الذي أنكر ذلك وأخذ يبكي بشدة من تلك التهمة وهو ينظر لأخيه. قبل أن يهمّ الأب بضربه، لاحظ بعض دقيق السميذ على خُف بشاي فذهب له وخلع عنه نعله، وما أن رآه حتى زاد غضبه وهجم على بشاي دون انتظار وانهال عليه بالضرب ثم حبسه مع بغله في بيت المواشي ثلاث ليالي.

لكن ما زاد من ذلك الكره أمر آخر، إنها بولخاريا، تلك الفتاة التي منذ رآها جن جنونه وحاول بكل الطرق أن يتقرب منها عبثًا. كانت نزواته وحدها تحركه نحوها فذلك كل ما كان يشغل بشاي، وخاصة حينما عرفها. بيضاء ممشوقة القوام، خصلاتها لا تختلف كثيرًا عن لون الذهب، خصرها المنحوت كان يذهب عقله كلما نظر إليه. حتى قدمها وذاك الخلخال الكبير الذي كان يزينها، لم تُفلت أصغر تفاصيلها من عينيه العابثتين!

اقترب كثيرًا من الغانية وكاد يلتصق بها ثم وضع يده على جانب خصرها فجذبها بقوة نحوه وقال بصوت مهزوز:

– ذلك الطعام كان يجب أن يكون لي وليس له يا بولخاريا.

ما أن سمعته يناديها بذلك الاسم حتى دفعته عنها بقوة حتى كاد يقع أرضًا

لولا اصطدامه بأحد المترنحين على شاكلته ثم أكملت دورانها وهي لا تزال تنظر إليه لكن هذه المرة بغضب.

اعتدل وكأن شيئًا لم يكن ثم نظر لها بغضب وعاود الكرة ليقف أمامها، وقبل أن يجذبها نحوه أمسكت يده لتدور هي حوله في خلاعة ثم قالت:

– لا تغضب هكذا! بولخاريا هي من دفعتك لا غيرها.

ثم تركته وأكملت دورانها الخليع حول السكارى لكنها لم تُبعِد ناظريها عن بشاي الذي وقف صامتًا ممتقع الوجه وكأن الماء صُب عليه فجأة.

جنون الرغبة جعله لا يرى سواها. ربما لأنه يسعى خلف فريسة صعبة فهكذا الصياد، يترقب وينصب شباكه حول فريسته. يطاردها ولا يمل وكلما هربت من شباكه اشتاط غيظًا وزاد إصراره ثم تقع في براثنه فيهدأ ويُخمد الفوز تلك النيران، وما أن ينال مبتغاه يقذفها بعيدًا ليبحث من جديد عن فريسة يمارس معها هوايته المفضلة، الصيد.

مرّ الوقت عليه وهو عالق عند ذلك المشهد. كان دائمًا ما يتابعها ويتلصص عليها حينما تذهب إلى أخيه. يتبعها حتى تصل ثم يقف بعيدًا ليشاهدهما ويزداد كرهه لأخيه إن رآهما ينعمان بالسعادة. قطعت الغانية ذلك التفكير حينما أمسكت يده وهي تقول:

– ما رأيك باستضافتي الليلة لنمرح قليلًا، وأجلب لكَ مفتاحًا سحريًا لتلك المشكلة، مقابل بضعة دراهم قليلة؟ لن أطمع بالمزيد.

ثم ضحكت بخلاعة وهي تجذبه من يده وتسحبه خارج الماخور. اعتاد على ذلك الأسلوب منها فهو على علم تام أنها تسعى خلف بعض المال كالعادة. علاقة متبادلة ما بين عربيد وغانية، المتعة مقابل المال لكن مع حالة الثمالة التي عبثت به إلا أنه انتبه لكلمة «المفتاح السحري لمشكلتك»، وما أن خرجا من الباب إلى الطرقات الخاوية حتى سألها:

– أي مفتاح سحري أيتها الملعونة؟

اكتفت بالنظر إليه مع ابتسامة فجّة وأكملت طريقها، تسحبه نحو داره التي تحفظ طريقها عن ظهر قلب. ما أن وصلا إلى الباب حتى دلفا إلى الداخل كي لا يراهما أحد، وما أن أغلق الباب حتى هجم عليها وأمسك عنقها. اقترب من أذنها وقال:

– لا أحب تلك الألعاب والأحاجي. أفصحي عمّا لديكِ أو الويل لكِ!

دفعته بسرعة لتلتقط أنفاسها وعادت للخلف بضع خطوات، وعادت لتلك الابتسامة الخليعة ثم نزعت عنها ثيابها ببطء شديد وهي تنظر في عينيه مباشرة. ما أن رأى جسدها العاري تمامًا حتى هجم عليها كالثور الهائج يشبع نزواته الحيوانية دون هوادة.

*****

ما أن لاح الفجر حتى استيقظ بشاي ليجد الغانية ممددة إلى جواره. نهض يرتدي ملابسه بهدوء ثم رفع جرة الماء كي يشرب. عاد لينظر لها وهنا تذكر الكلمات التي نطقت بها ليلة أمس. ذهب إليها وجلس على فراشه ثم مد يده ليوقظها. بغنج فتحت عينيها وتقلبت تنظر ناحيته بهدوء، وما أن استفاقت من نومها حتى رفعت رأسها ببطء واعتدلت وهي تسحب قطعة من ثيابها لتستر جسدها وقالت له:

– لم أعتد منكَ على هذا الهدوء. لا تدعني أظن أن ليلة أمس جعلت قلبكَ يميل!

ضحكت وهي ترفع جسدها عن الفراش مبتعدة قليلًا وممسكة بثوبها لترتديه. تحركت صوب جرة الماء لتشرب وما إن انتهت من الشرب حتى استدارت نحوه وقالت:

– الآن فهمت. لا زالت كلمات أمس تأكل فكرك، تريد أن تمسك ذلك المفتاح السحري.

وقفت تنظر إليه نظرة صامتة فنهض متجها صوبها ثم وقف على بعد خطوة منها قبل أن يقول:
– هاتي ما عندك!
كانت نظراته حادة مترقبة، حيوان ينتظر الانقضاض على فريسة لكنها على دراية تامة كيف تجعل من ذلك الأسد هرّا! اقتربت منه حدّ الالتصاق ومالت برأسها ناحية أذنه اليسرى وهمست قائلة:

– دعنا نتفق أولًا على مقابل للنصيحة، وكن على ثقة بأني لن أطمع تلك المرة أَيْضًا.

لم ترُق له تلك الجملة وشعر بكثير من الابتزاز مما جعله يمسك يدها ويلفها خلف ظهرها بيده اليمنى ثم أمسك شعرها بيده اليسرى وجذب رأسها إلى الخلف وهو يهمس في أذنها:

– أيتها العاهرة التي لا تشبع، مأكلك ومشربك وتلك الثياب أنا من يوفرها لكِ. إن كان لكِ وجود إلى اليوم فهو بفضلي، والآن تُملين عليَّ أنا شروطًا. سأقتلع رأسك لو لم تنطقي فورًا.

حاولت الإفلات منه دون جدوى فركلته بقدمها بقوة ما بين فخذيه فتركها من الألم ثم همّت لتمسك رقبته وهو منحنٍ أمامها يتألم قائلة:

– تلك الغانية التي تتحدث عنها كانت دومًا طوع يدك. تلك العلاقة متبادلة، أنت تشبع رغباتك الحيوانية مقابل بضعة دراهم أنفق بها على أمي ولكن ما يزيد من غضبي أنك لا تفهم. أنا هنا لأساعدك وربما أكثر.

تركت يده وتحركت بضع خطوات جانبًا وهي لا زالت تنظر له في حين رفع هو رأسه ليتابع ما تقول. على الرغم من حنقه بسبب تلك الركلة لكنه تمالك نفسه ليستمع ثم يقرر. هنا استطردت بهدوء قائلة:

– أنتَ تريد بولخاريا، تريد أن تشبع رغباتكَ معها وربما لتقتص من أخيك. تبحث عنه هو تلك الفريسة التي حاولت طيلة سنوات أن تلمس جسدها

لتنعم به وتحرقه. هو العائق أمامك ولو غاب فستصبح هي لكَ، وبعدها أين سأكون؟ لهذا سأعقد معكَ اتفاقًا. سأعطيك الحل كي تتخلص من أخيك وتفوز بها مقابل مئة دينار وعشر كيلة من حنطة دوريًا. إن لم يعجبك الأمر فلا تتبعه، وإن حاولت خداعي فسأضع رقبتك تحت سيف متولي الخراج، وأنتَ على علم أن لي كلمة عليه فأعتدل حتى نتحدث.

كان الغضب لا يزال يشع من عينيه ولم يعتدل حتى لكنها ظلت تتحرك وهي تنظر له وتبتسم بسخرية وأكملت:

– لا تنظر لي هكذا وأعتدل! دع عنك غضبك فهناك الكثير لنتقاسمه في حضرة ثالثنا.

أعتدل بهدوء ولا زال ينظر بغضب إليها ثم قال:

– سأعطيك ما أردتِ شريطة أن يتحقق ذلك! وإن لم يحدث فسأجعل شيطانك هذا يبحث عنكِ في كل الأرض دون جدوى. تحدثي!

اقتربت منه دون خوف وبدأت تنسج خيوط خطتها الشيطانية للإيقاع ببخاتي. كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما كلما زادته شيئًا كلما جحظ من هول أفكار تلك الشيطانة. ما أن أكملت له مخططها حتى ضحكت بصوت عالي فأمسك بها من خصرها بقوة ودفعها على الفراش ليكرر ما فعله ليلة أمس لكنه تلك المرة كان يضاجع الشيطان ذاته.

الفصل الثالث

خرج بخاتي من البيعة وهو يودع أحد الشمامسة وبدت عليه علامات الحزن فقد أرسل الأنبا ميخائيل في طلبه، على غير العادة في ذلك الوقت فقرر الذهاب مسرعًا كي يرى ما الأمر. ما أن ابتعد عن البيعة قليلًا حتى توقف ينظر صوب اليمين ثم اعتدل ليصبح مواجهًا تمامًا لتلك الأرض. تنفس بهدوء، يتنسم عبير الصباح والحزن يملئ قلبه وقال:

– أيتها الأرض المباركة، يا أرض حاشان! حملت على ترابك بركات يعقوب النبي بن النبي بن النبي أبا يوسف النبي، وكنت أرض اللقاء من بعد سنين. أيتها الأرض التي حملت على هودجها عطر أرمانوسة بنت المقوقس، رمز الجمال. يا أرض الحوف، ما الذي سيكتبه عليك الزمن من بعدنا؟ وهل سيبقى للتاريخ سطرًا ليذكرك؟

كان هناك ما يشغل باله ويرهق كاهله فانحنى وجلس القرفصاء وهو لا يزال ينظر لذات البقعة. مد يده إلى الأرض فكبش منها بعض التراب، يفركه بين يديه في راحة ثم رفعه إلى أنفه ليشمه وهو يغمض عينيه. في تلك اللحظة عاد لما دار بينه وبين الأنبا ميخائيل.

كانت أحوال البلاد هي الغالبة على الحديث فمنذ أن كان هارون الرشيد خليفة والصراع يملأ الحوف الشرقي مع قبائل القيسية، يمتنعون عن الجزية فيزداد الكر والفر بعدما يرسل عليهم من يجبرهم بالقوة. لم تهدأ الحوف من تلك الصراعات وما لحق بالأقباط ممن ساعد القيسيين من سخط، خاصة

تلك الفترة من بعد أن تنيّح سيماؤون الثاني بطريرك الأقباط.

أخبره الأنبا أن هناك رجلًا صالح يُدعى القس يوسف (يوساب الأول) قد اختاروه للبطريركية وقد رفض ذلك لكنهم جلبوه عنوة، ولم يتولَّ البطريركية بعد.

لقد توسموا فيه خيرًا حيث وضع المسيحيين وما يعانوه من فرض الضريبة وزيادة الخراج وقد زادت المجاعة، وخطر الطاعون على أبواب بلبيس، والبيعة تسعى لحشد رجالها الصالحين لمد يد العون بالتصدق بما هو فائض، والدعوة في الناس بالصبر وعدم الانخراط في صفوف الثائرين فالأرض انقلبت رأسًا على عقب، وما عادت ثورة البشموريين ثورة مسيحيون فقط! انها ثورة الشعب عامة، قبط مصر ومسلموها وقد شاركهم أَيْضًا بعض العربان من شمال البلاد وصعيدها، فطلب منه الأنبا ميخائيل مساعدته والتحدث مع الصالحين لمد يد العون.

كان ذلك المطلب يشغل باله فضلًا عن أمر آخر قد ذكره الأنبا له فقد حذره من سلوك أخيه بشاي. أن العامة يتحدثون عن هرطقته والطمث الذي يحياه، افراطه في الخمر والغانيات. ليس ذلك كل شيء لكنه أخبره أن بشاي يُحابي العرب ويتقرب لهم، وأن فردًا من بيت متولي الخراج يتحدث معه بين الحين والآخر مما أثار غضب البيعة فطلبه ليتحدث مع أخيه.

ذلك الصراع الذي لا ينتهي، دائما ما كان مصدر همه! الأخ الأكبر لكنه الأصغر عقلًا، الأقل حبًا لمن حوله، الطامع الأعظم في كل شيء، ما كان له وما لم يكن. كل ذلك من فعل أبيهما فقد بارك الأصغر وجعل منه الأفضل.

حباه بعطفه وعلّمه وشاركه همه وبايعه فيما له ووضع طينه بين يديه فأصبح بشاي بحاله وماله تحت امرة بخاتي. ذلك ما لم يرضَه بخاتي فعدل الأمر وأعاد لأخيه حقه فرفضه، وأعاد الكَرّة فأعطاه مالًا فقبله، ومن ريع الأرض يعطيه خمسة مكاييل من حنطة دوريًا، ويزيده من الخضروات كلما حصد من الأرض حتى إن لم تكن حقه فهو يعطيها لأخيه. مع علمه أن أخاه لا يشبع، والكلمة الطيبة لا يسمع، ويكيد له بين الحين والآخر، فكان يصنع الحسن ليباركه الرب ويبارك بيته.

مرّ عليه بعض الوقت وهو في تلك الجلسة. لم يشعر بالعابرين من حوله ولا بحرارة الشمس التي بدأت تحتل كبد السماء. أتاه أحد رفاقه فجأة يركض مسرعًا وهو ينادي عليه فنهض بلهفة وهو ينظر صوب المنادي فسمعه يقول:

– بخاتي، تعال فورًا! زوجتك تضع صغيركما والقابلة في الطريق إليها.

ما إن سمع تلك الجملة حتى تبدل حاله وهرب الحزن من باله. إنه فالٌ حسن، سيصبح أبًا لطفل جميل من بولخاريا! دون أن ينطق، هرول مسرعًا صوب داره ليستقبل الضيف الجديد.

*****

بينما بخاتي ينتظر الزائر الجديد، هناك من كان يقف في نفس المكان كل يوم، يترقب وصول بولخاريا التي لن تأتي حتما اليوم لأنها تضع مولودها. كان الغيظ يأكل بشاي كلما مرّ الوقت وهو يترقب قدومها كالعادة، والعجيب أنه لم ينتبه لغياب بخاتي. تلك الرغبة برؤيتها أعمت عقله عن المنطق. إن لم يكن بخاتي في الأرض فلمن ستأتي بولخاريا؟

حينما تملك اليأس منه، قرر الذهاب في طريق بيت بخاتي لربما وجدها تقف هناك، وما أن قطع نصف الطريق حتى ظهر أمامه أحد الرجال يمتطي فرسه فاقترب من بشاي ودار حوله وهو يبتسم ثم نزل عن ظهر فرسه وقال له:

– لِمَ العجلة يا بشاي، ولماذا تود لقائي مع الغانية ماريز؟

نظر بشاي صوبه ثم قال:

– هكذا أنتم أيها العرب، على عجلة من أمركم. ثق أن ما سنتحدث به يهمك يا يوسف. اقترب منه يوسف ناظرًا بتحدي وزفر في وجه بشاي ثم قال:

– من الأفضل أن يكون بتلك الأهمية وإلا جعلت رجال غيث يحرقون وجهك الدميم هذا.

التفت كي يمتطي جواده مرة أخرى فاستوقفه بشاي قائلًا:

– هناك عشرون دينارًا لك، وللمتولي زمام أرض ولا أدري ما المكافأة التي سيعطيها لك رجال غيث. لا داعي للمشاحنة وبسط قوتك، وأترك الأمر

حينما تأتيك ماريز وستعلم أن ذلك الوجه جالب للخير.

لم يلتفت له يوسف وأكمل طريقه ثم امتطى جواده ودار حول بشاي الذي وقف بثبات، وقبل أن يرحل يوسف قال لبيشاي:

– لم أجد من هم أدهى منكم، وما أشمه من حديثك غدر ربما أعلمه لكن سأدعك تخبرني عنه بنفسك وإلا..

لم يكمل الجملة وترك بقيتها لبشاي وتفكيره ثم نكز جواده وانطلق مسرعًا.

ما أن غاب يوسف عن عينيه حتى بدأ يتحرك من جديد ليكمل طريقه وكأن شيء لم يكن لكن عقله الذي يحضر دائما متأخرًا طرق ببابه بسؤال، كيف فعلت ماريز ذلك وبتلك السرعة؟

لم يجد بعد بحث طويل، جوابًا أشفى من أن الحاجة للمال تفعل وأكثر. نفس الحاجة التي جعلت من تلك الغانية دمية في يده كل ليلة، يسحبها نحو فراشه على الرغم من تلاعبها بالكلمات ونصب فخاخها حوله لربما يحبها. إنها علاقة المال بالحاجة لا أكثر.

ثم عاد يتذكر كلمات تلك الشيطانة حول التخلص من بخاتي وكيف من الممكن أن يفوز ببولخاريا. في تلك اللحظة، تملك الشيطان عقله وجعله يتابع خياله المريض للأحداث. كيف سينتهي بخاتي؟ كيف يصبح مالك كل شيء من جديد؟ كيف ستصبح بولخاريا رهينة يده، يقطف من ثمارها وقتما شاء؟

سار في الطرقات، لا يرى أي شيئًا إلا تلك الغيوم الشيطانية التي أعمت عينه

عن كل شيء إلا عن نزواته.

قدماه قد عرفتا طريقهما صوب بيت أخيه، ومن بعيد وقف يتحسس أي شيء عن بولخاريا. مر الوقت ببطيء شديد لكن فُتح باب الدار فجأة ليجد القابلة تخرج منه وعلى وجهها ابتسامة عريضة، يتبعها بخاتي وهو في حالة سرور يكاد الأعمى يميزها. هنالك ازداد غضبه وصار يضرب بقدميه في الأرض كطفل صغير، وهرب من مكانه مسرعًا قبل أن يراه أحد فما تابعه منذ لحظات لا يعني إلا شيئًا واحد، لقد أصبح بخاتي أبًا.

الفصل الرابع

أن يرى مداد نسله في الدنيا هو أكثر ما يُشعر الرجل بالسعادة، فهناك من سيحمل اسمه ليبقى حيّا حتى بعد موته. يسعى جاهدًا لنقل ما تعلمه من تلك الدنيا داخل تلك التربة الجديدة. يحيطه بكل ما أنعم الخالق عليه به حتى يصبح قويًا عاقلًا يغالب الحياة.

كانت السعادة تغمر بيت بخاتي بقدوم ولده باخوم. لقد انتظر ذلك النسل كثيرًا وكم دعا الرب أن يكون له ذرية من بولخاريا حتى أنعم عليه بذكَر يحمل اسمه ويخلد ذكراه، لكن لم يخف داخله بعض من الخوف مما هو قادم! وكلما مر عليه يوم من ميلاد ولده، هجم الخوف على شاة فرحه ليزعجها فتهرب لكنه كان يخفي ذلك عن بولخاريا. لم يخبرها عن ذلك اليوم وما دار في البيعة مع أنها لم يغب عنها ما يحمله لكن أكثر مخاوفها كان بشاي لعلمها بذلك الكره الشديد، وطمع بشاي الذي لا ينتهي، وأطماعه التي تحيط بها!

نعم، هي تعلم كم يرغب فيها ولم تفصح يومًا لزوجها عن ذلك! كم حاول بشاي التودد والتقرب منها! وكثيرًا ما اعترض طريقها بين الحين والآخر حتى أنه ذات مرة حاول وضع يده عليها فنهرته وكتمت ذلك خوفًا من غضب بخاتي فزوجها شخص طيب جدًا لكن لو تملك الغضب رأسه فلن يردعه أحد، والأهم من ذلك أنها لا تود زيادة تلك الأحقاد بين قلبيهما فكانت تتضرع وتصلي للرب دائما ليصبح مجراهما واحدًا، وتنبت ما بينهما روح المحبة، حتى ولو كان ذلك مستحيلًا أو يبتعد عن طريقهما دون أذى.

كان على بخاتي أن يذهب لمراعاة أرضه. تحرك بخفة بعد مطلع الفجر حتى لا يحدث جلبة توقظ زوجته، فما أن انتهى من صلاته حتى خرج وأغلق الباب خلفه بإحكام. ركب بغلته متجها صوب أرضه، وقبل منتصف الطريق وجد سيدة قبطية تجلس على الأرض في حالة يرثى لها وعلى فخذها طفل صغير ممدد يبدو عليه التعب، هزيل الجسد رث الثياب.

نزل عن بغلته واقترب منها وقال:

– كيف حالكِ يا امرأة؟ ما الذي يُجلسكِ هنا؟

نظرت له بعينين منكسرتين تملؤهما الدموع وهي تتحسس رأس صغيرها وقالت:

– هذا هو حالي. انتظر المارة ليعطوني ما أُطعم به هذا الصغير الذي أنهكه المرض، ويصارع الموت كما ترى.

انتفض جسده من تلك الكلمات وشعر بحزن شديد من وقع تلك الكلمات على قلبه، وما زاد من انقباض صدره ذلك القيح الذي أكل جزءًا كبيرًا من ذراع الصغير. اقشعر بدنه وهمّ بسؤالها:

– ماذا حدث لكما، وأين والده؟

لم تبرح عيناه الصغير عند سؤالها إلا حينما سمع صوت نحيبها الذي بدأ يعلو رويدًا رويدًا وكأن سؤاله أصاب موضع الألم، فنظر لها في حسرة وانتظر جوابها لكنها صرخت وكأن النار تأكلها قائلة:

– سجنه الظالمون. أخذه العباسي من داره بلا سبب. قذفوا به في السجن حيث لا أستطيع رؤيته. أخذوا ما نملك وقطعوا قوت الدار لأنه تحدث بالحق وقال إن البشموري على حق، والشعب يموت جوعًا بحق. حينما نطق بذلك سلبوه ذلك الحق ورموه في السجن.

زادت القشعريرة في جسده من تلك الجملة الأخيرة وتذكر ما قاله الأنبا ميخائيل عن الثورة، وكيف آل حال البلاد والأرض تغلي غضبًا، وكيف أصبحت هذه المكلومة بلا عائل فالجوع يحوم بجناحه في كل مكان والموت يراقب ليحصد الأرواح.

في المقابل من يتولى ذلك الزمام إن كان في غفلة أم أعماه المال وحصاده فقد جرت العادة على أن كل من تولى تلك البلاد وأصلح أبعدوه، ومن سكت ثم نهب وكنز في أحشائه أبقوه إلى أن يحين موعد ذهابه فيأخذ ما جمع. يحزم على فرسه ما نفع ويسد سمعه عن حال البلاد وما سمع، ويذهب من حيث أتى.

زاد خوفه حينما تخيل حال زوجته وطفله الرضيع وزلزل فؤاده مجرد التخيل. أن يروح وتبقى زوجته بلا عائل فتخرج إلى الطرقات، تمد يدها كأي محتاج سائل فيطمع فيها الطامعون، وينهش عرضها المغتصبون فتجوب الطرقات سائلة أو تصبح عند أولئك العباسيين سبية.

انتفض فجأة وخرج لسانه من خلف تلك الغيوم وقال لها:

– لا تذهبي من هنا! سأعود فورًا.

عاد على ظهر بغله ونكزه بقوة ليركض متجهًا صوب بيته، وما أن وصل

البيت دلف بخفة حتى لا تراه بولخاريا وتكشف انزعاجه. أحضر جرابًا مُعلقًا على الحائط فأخرج منه لفافة، فتحها بسرعة ونظر داخلها ثم أحكم غلقها. التقط جرة ماء وخرقة نظيفة ثم التفت صوب زوجته فوجدها لا تزال تغط في نومها فخرج مرة أخرى.

مرّ على أحد الأشجار خلف داره فقطف منها بضع وريقات صغيرة وجلب بعض الأعشاب ثم ركب بغله وانطلق.

عاد مسرعًا فوجد المرأة وهي لا تزال جالسة على حالها فقفز عن بغله وأخرج اللفافة ومعها بعض الأعشاب وأوراق الشجر من جرابه وذهب صوب الصغير. أمرها أن تشلح عنه ثوبه حتى يرى موضع القيح ثم أحضر الخرقة النظيفة وبللها بالماء ثم مسح موضع القيح بهدوء.

العجيب أن الصغير كان يئن بصوت منخفض. لقد بلغ به التعب والجوع حدهما. ما أن أكمل مسحه حتى فتح اللفافة وأخرج ما بها ثم نظر إليها وقال:

– لا تخافي فهذه الوصفة مباركة من صنع يد أبينا ميخائيل، وهي من بذر الكتان والشيح ومفروم الثوم والعسل مقروء عليها.

نظرت له بصمت فلم تجد ما تقوله بينما أكمل هو مسحه وبدأ بدهن المعجون على يد الصغير الذي بدأ ينتفض قليلًا من أثر الألم، وما أن دهن موضع القيح كله حتى وضع عليه وريقات التوت ليغطي بها موضعه ثم قطع الخرقة وأخذ منها جزءًا نظيفًا يغطي به المعجون والوريقات.

وضع يده على الخرقة وبدأ بالقراءة عليها بصوت لم تسمعه المرأة، وما أن انتهى حتى جلب اللفافة من جواره واعطاها للمرأة وقال لها:

– هذه لكِ. كل مساء ضعي ذلك المعجون على موضع القيح وغطيه بتلك الوريقات ومن فوقها خرقة نظيفة.

جلب الجرة وأعطاها لها وقال:

– هذه جرة عسل، وفي الجراب مقدار يسير من حنطة. خذيه واذهبي لدارك وأطعمي الصغير، وكلما نفذت منك الحنطة تعالي إلى هنا صباحًا. سأجلب لك ما يكفيك (صمت لحظة واستطرد) وإن لم أمر عليك فاذهبي للبيعة وأخبريهم أن من أرسلك بخات..

قبل أن يُكمل تلك الجملة، قاطعه صوت أجش من خلفه يقول:

– أنتِ هنا أيتها الشمطاء؟ ألن تكفي عن التسول ومضايقة المارة بخرافاتك؟

اقترب من بخاتي لينظر له وجهًا لوجه واستطرد قائلًا:

– من هذا؟ بخاتي الطيب! هل تعرف تلك الشمطاء المجذوبة؟

نهض بخاتي بحنق شديد مما سمع، ونظر للسائل ثم قال:

– وما دخلك يا يوسف؟ وهل مساعدة المارة المحتاجين أمر يعاقب عليه قانونك؟

ابتسم يوسف بلا مبالاة وقال:

– المحتاجون؟ هذه الشمطاء تسب الوالي وتختلق الأكاذيب. تحكي عن زوج لم نرَه وتقول إنه في السجن، زوج يساعد الثوار ويدعم البشموريين، والآن بخاتي الطيب يساعدها وربما يقص عليها بعض الخبر. وجودك هنا يستوجب التوضيح أيها القبطي.

زاد احمرار وجهه وأخذت عيناه شكلًا غريبًا ويبدو أن هذا ما كان يسعى إليه يوسف. تقدم بخاتي صوبه خطوة واحدة ونظر داخل عينيه في تحدي واضح وقال:

– وهل مساعدة المحتاجين يفرض عليه القانون توضيحًا؟ ثم أنت قلت منذ برهة أنها تختلق الأكاذيب، ليكن ذلك صحيحًا. أنا هنا فقط لأساعد ذلك الطفل الصغير.

ضحك يوسف باستهزاء مما أثار غضب بخاتي الذي استطرد قائلًا:

– هل من سؤال آخر أم أذهب الآن لحالي؟

لم يرد عليه يوسف فأخذ بخاتي يلملم حاله ويهيئ بغله، وقبل أن يمتطيه جذبه يوسف من ذراعه بشكل مباغت فمال بخاتي وترنح حتى كاد يقع. قبل أن ينطق يوسف اعتدل بخاتي مسرعًا وأفلت يده ثم بسرعة البرق لف يده حول معصم يوسف واستدار ليلوي ذراعه خلفه وجذبه نحوه ثم ضغط عليه أكثر حتى مال يوسف وانحنى بقوة بخاتي حتى جثا على ركبتيه. مال معه بخاتي وهو

يهمس له في أذنه بتحدي:

– لا أدري ما تحاول فعله لكن هناك ما سأقوله لك، لقد ولدنا على هذه الأرض أحرارًا! لم يمنعنا أحد من عون محتاج ولم يأكل خبزنا لئيم فأغرب عن وجهي يا هذا حتى لا تزيد الطامة.

دفعه بقوة حتى وقع أرضًا وزادها بركلة على مؤخرته بقوة حتى ارتطم رأسه بصخرة على الأرض بارزة فسال منه بعض الدم، مما أثار غضب يوسف حينما طبع يده على جبينه لتحمل على باطنها بعض الدم.

سرعان ما نهض يوسف عن الأرض واستدار له بحنق شديد، يقول بغضب:

– هل ترى ما فعلت الآن؟ أقسم أنني لن أدعه يمر! قطرات الدم التي سالت هنا على تلك الأرض بسيطة لكن كفارتها كبيرة وسترتوي تلك الأرض بدماء أكثر، ولنا حديث آخر.

امتطى فرسه ونكزه بغضب وغادر. تابعه بخاتي بعينيه حتى اختفى عن ناظريه ثم التفت ليرى المرأة لكنه ذُهل. لقد اختفت وكأنها كانت سرابًا.

*****

جلس بشاي يراقب ماريز وهي ترقص بخفة وعلى وجهها ابتسامة. كان يرى خلفها أمرًا غريبًا، على غير العادة تتمايل وكأنها تخاطبه وما أن زاد ذلك حتى نهض عن مكانه بعد أن رفع الكأس جرعة واحدة واقترب منها وقال:

– ما سر هذه السعادة الليلة؟ هل وضع أحدهم بعض الدراهم في جعبتكِ أم لديكِ زائر؟

نظرت له بعد ما سمعت وقد غابت البسمة عن ثغرها لتتحول للعبوس. أكملت رقصتها وهي تحاول ابتلاع كلماتها الحادة وأبعدت ناظريها عنه لكنه ظل واقفًا محله دون حراك، وبعد فترة عاد ليجلس مكانه منتظرًا قدومها.

أنهت رقصتها وغابت قليلًا ثم عادت واقتربت من مجلسه، ودون أن تجلس قالت له:

– تلك الغانية التي تسبها ذهابًا وايابًا وتحقر من شأنها تساعدك في تحقيق أهدافك لكنك لا تبخل عليها بالمهانة كلما صادفتها. هذا حقًا من عاداتك لكن يكفي ذلك، ودعني أقول إني سعيدة لأني على مشارف الخلاص منك والحصول على ما اتفقنا عليه. لقد وقع أخوك في الفخ.

وقف من مجلسه فجأة بعدما سمع، وجذبها من ذراعها نحوه وقال بتعجب:

– ما الذي حدث؟ هل بدأ يوسف بتنفيذ خطتنا؟

جذبت ذراعها من يده وهي تنظر لآثار أصابعه على يدها ونظرت له بامتعاض وقالت:

– نعم، لقد قام يوسف بالمطلوب وأخوك الطيب وقع في الفخ. زِد على ذلك أنه كاد يتعارك مع يوسف فأصبح مبتغاك قريبًا. (استطردت) قبل أن تذهب، أترك بعض الدراهم في جعبتي فلن يتركها أحد غيرك، ولا أنوي استقبال زائر الليلة حتى أنتَ.

قبل أن تنصرف، نهض عن مقعده والتف ليقف أمامها وقال بسرور:

– لا، لا! لن تنصرفي قبل أن نحتفل بذلك الخبر ولك ما شئتِ بعدها.

حاولت أن تبتسم لكنها نظرت له وقالت:

– احتفل أنت ولا تنسَ المال! عليّ الذهاب لأعول أمي المريضة.

ثم ذهبت دون أن تنظر له.

لم يحاول إيقافها ولا حتى بكلمة وتركها تذهب دون أن ينظر. عاد ليجلس على مقعده وهو منتشٍ. لقد انتظر ذلك الخبر كثيرًا منذ أن علم بقدوم مولود بخاتي. منذ عقد ذلك الاتفاق مع يوسف وماريز وهو ينتظر، وبدأ يتذكر تفاصيل تلك الخطة الشيطانية وكيف سينصب يوسف الفخ لأخيه ليوقعه. كيف سيصبح بخاتي في لحظة مع البشموريين ويقدم لهم العون من بلبيس، وما يلي ذلك من مصائب تقع على رأس أخيه حتى ينتهي أمره.

كان يرى كل ذلك نصب عينيه وهو لا زال ممسكًا بالكأس يتجرع منه ببطء كأنه في عالم آخر، وبالفعل انتقل بفعل ذلك الخبر إلى مكان آخر وعالم آخر، عالم يخلو من بخاتي، عالم لا يرى فيه إلا بوخاريا.

مرّ الوقت عليه وهو جالس هكذا دونما حركة لكن قاطعه عودة ماريز التي وقفت أمامه دون أن ينتبه بادئ الأمر حتى وضعت يدها على الكأس وهو يرفعه نحو فمه فعاد لرشده لحظة وهي تقول:

– سأغادر الآن. هيا أعطني بعض المال كي أذهب!

وقف بهدوء وهو ينظر لها ثم أخرج من ثيابه صرة المال وأعطاها لها وقال:

– غدًا لكِ مثلها، وسأزيدكِ عمّا طلبتِ ضعفًا حينما أراه وقد انتهى.

جذبتها من يده وهي تغلقها بإحكام ثم نظرت له في زهو وقالت:

– إنه قريب، وقريب جدًا.

دفعته ليجلس مرة أخرى على مقعده وهي تستطرد:

– عد إلى أحلامك! أعلم جيدًا ما بها الآن.

ثم رحلت بصمت.

الفصل الخامس

جلس بخاتي طيلة الوقت يفكر فيما حدث. لم يجد أي سبب لما فعله يوسف وكذلك ما فعله شيطان الغضب بعقله وكيف هجم على ذلك العباسي دون أن يفكر بعواقب ذلك، وهناك أمر آخر لم يبرح عقله، أين ذهبت تلك المرأة وصغيرها بتلك السرعة؟

ما أن حل الليل حتى نهض من مجلسه ليشعل القنديل فزاده قليلًا من الزيت وأشعله ثم عاد ليجلس محله. لاحظت بولخاريا سحابة الهمّ التي حجبت عينيه. نهضت وعلى يديها رضيعها وذهبت في لطف تخاطبه فقالت:

– مالي اليوم أرى الحزن قد خيم على وجهك؟ ماذا حدث؟

لم يلتفت لها بعد السؤال فجلست إلى يمينه ووضعت يدها على يده التي انتفضت بشكل خفيف وكأن قشعريرة سرت في جسده والتفت لها، وهنا باغتته قائلة:

– هناك شيء أراه كبيرًا قد خطف عقلك وتاه معه انتباهك حتى أنك لم تلحظ وجودي. ماذا هناك؟

نظر لها وحاول الابتسام لكن بصعوبة ثم وضع يده على وجهها وهو يتأمله وقال:

– لا شيء يا عزيزتي. كنت أفكر قليلًا بالحال. البيعة تطلب منا مدّ يد العون لأهلنا، لمن استطاع أن يُعين، والحال يسوء والجوع يطارد كل بيت دون رحمة. لقد وصل الحال أن يأكل الإنسان لحم إنسان. ذكرها لي رجل رحّال مر بنا منذ أيام أنه وبعدما خرج من تنيس وباع بضاعته في السوق، مر على أحراش في غربها صوبنا فوجد رجلًا رث الثياب قد هجم على امرأة. خُيل له أن ذلك الرجل يحاول النيل منها ومن شرفها فجلب صخرة من الأرض وقذفه بها ثم ذهب ينقذ المرأة فوجد الدم يسيل من كتفها وقد أكل من ذراعها اللحم. حاول قدر ما استطاع انقاذها لكنها بعد قليل فقدت من الدم الكثير وفارقت الحياة.

شهقت من هول ما سمعت فما تخيلته كان صدقًا مؤلمًا، وما آلت إليه الأمور من جوع في ظل طغيان العباسيين. تخيلت كيف لتلك الضعيفة أن تقع فريسة جوع وكيف أصبح البشر في ظل ذلك القهر.

ساد الصمت بينهما ولكن عقليهما في مكانيهما. ربما هي نفس المشكلة ولكن من زاويتين. بخاتي وفخ العباسي وما سيتبعه من ظلم متوقع، وبوخاريا والحسرة على مسكينة ماتت فريسة جوع واحد من بني جنسها في ظل مجاعة فرضها ظلم الحاكم بجهله على المحكوم بضعفه.

لم يقطع ذلك الصمت الا بكاء الطفل فنهضت وهي تحتضنه في حرص وذهبت في ركن ترضعه. لم تتخذ ذلك الموضع دون سبب فقد ذهبت حتى لا يرى دموعها، فالخوف من الغد هجم عليها، وغصّة غريبة كانت تفتك بقلبها منذ أيام لكنها كانت تصلي وتطلب من الرب العفو. أما هو فقد عاد لتفكيره

بما حدث، فمنذ ذلك اليوم وهو منتظر ردة فعل يوسف. مرت أيام قليلة دون صدى ولكن هذا لا يعني أن الأمر قد مرّ. هناك ما سيحدث وهو على علم تام بذلك لكن من أين سيأتي ذلك السهم؟

الأمر الذي جعله يندم هو تلك المسكينة التي إن تركها بشكل أو بآخر لن تستطيع الحياة. إن سَلِمت من العباسيين فلن تسلم من بشاي الذي يتربص بهما، وإن حفظتها البتول منهما فلن يرحمها الجوع. بعد تفكير عميق قرر أن يذهب للبيعة لعرض الأمر على الأنبا ميخائيل علّه يجد عنده ما يريح صدره ولو قليلًا!

نظر صوبها فوجدها تجلس بعيدًا ترضع الصغير. كان قد نام وهي لا زالت تمد ثديها للصغير. لقد ذهبت هي الأخرى إلى عالم آخر مع روايته. نهض من مجلسه وتوجه صوبها وقبل أن يجلس وجدها تمسح عينيها من الدموع فهرع يمسك يدها وهو ينظر لعينيها وقال بحزن:

– يا ليتني ما قصصت عليكِ تلك الحادثة! أعلم كم هو ضعيف قلبكِ ولن يحتمل التفكير لكن صدقًا أخطأت!

مال برأسه على رأسها فقبلها بحنان ثم جلس إلى جوارها وأكمل:

– لتكن مشيئة الرب! ولتحفظنا البتول مما هو قادم! سأذهب غدًا لرؤية أبينا ميخائيل والتحدث معه في تلك الأمور فربما عدت بشيء يريح الصدر لكن سأطلب منكِ الآن شيئًا ولا ترفضي هذا الطلب! عديني يا بولخاريا، إن حدث لي مكروه أن تذهبي للبيعة ولا تبرحيها! لا تناقشي الأمر، أرجوك!

نظرت صوبه بغضب وهي لا تزال تبكي وقالت بصوت عالي:

– ما الذي تطلبه؟ وهل أستطيع العيش حتى في تلك اللحظة؟ لا تتحدث عن ذلك ولا تطلب مني شيئًا يا بخاتي! البتول ستحفظنا والسيد يحمينا. الرب يسمعنا وسيخلصنا من ذلك الشر! أنا مؤمنة بذلك وأنت أيضًا، فلا تتحدث أرجوك!

عاد الصمت يسود المكان وكأنه بنى حاجزًا سميكًا بينهما. لم يستطع لسان أيّ منهما أن يتحرك فهو يعلم جيدًا ردها قبل القول، وهي تعلم كم يخشى عليها! والمحزن في الأمر أنهما كانا ينظران لذلك الصغير وسؤال واحد لا يبرح التفكير، ما الذي ينتظرك؟

*****

خرج بخاتي في الصباح متجهًا صوب البيعة. كان يشعر بضيق في صدره وكأن أحدهم قد وضع على صدره صخرة. كانت خطواته متثاقلة، يجر قدمًا خلف قدم بصعوبة. مع كل بضع خطوات كان يلتفت خلفه ويقف لوهلة لينظر إلى باب داره، والعجيب أن بولخاريا كانت تتابعه من ثقب في الباب وكأنها تخشى تركه. عيناها تتابعانه كلما راح وكلما وقف لكنه توقف هذه المرة لوقت أطول ونظراته كانت شاحبة ثم نظر إلى الأرض. قبل أن يلتفت، فتحت الباب ووقفت تحمل رضيعها، تنظر إليه بحسرة.

رفع رأسه حينما سمع صوت الباب لينظر إليها ورجع مسرعًا صوب الباب. نظر في عينيها مباشرة فجدتهما مغرورقتين بالدمع لكنها أشاحت بنظرها عنه ونظرت صوب الرضيع في تحسّر واضح قبل أن يقول لها:

– لِمَ يحتل الدمع هذه العينين الجميلتين؟ ما سبب انزعاجك يا جميلتي في الصباح؟

لم تنظر إليه ولكنها أجهشت بالبكاء وزاد صوت نحيبها. أسرع يضمّهما إلى صدره ويربت على كتفها في ودّ ثم قبّل رأسها واستطرد:

– لا أحب رؤية هذه الدموع ولا هذه الحالة. أنتِ مؤمنة وكنتِ دائما مصدر قوتي الخفية. لا تحزني ولا تجعلي الشيطان يتلاعب بعقلك! سنكون بخير يا جميلتي.

زاد من قوة ضمها ليطبع على قلبها الطمأنينة. حتى وإن لم تطمئن لكنها وهي مستسلمة على تلك الحالة قالت:

– أنتَ لست بخير منذ بضعة أيام. تحاول خلق القصص وتناور كي لا تجيب عن سؤالي كل مساء. وجهكَ الشاحب وعقلكَ الغائب، هناك ما سلب عقلكَ. هناك ما خطف سكينتكَ. الهم يفرد أجنحته على عينيكَ. هناك خوف ما، أشم رائحته والآن تأكدت من ذلك.

استمر في ضمها وأخذ يلامس خصلات شعرها بحنان. كانت تستمع لصوت تنهداته الحارقة وهو لا يملك حجة جديدة ولا قصة ليراوغها بها، كذلك من الصعب جدًا اقناعها أنه لا شيء يؤرق عقله. ما بين غياب الحجج وخوف البوح بالحقيقة، باغتته بدفعة خفيفة لتصرخ في وجهه قائلة:

– إما أن تقص عليّ ما يوجعكَ أو سوف آتي معكَ أينما ذهبت، ولتكن مشيئة الرب حاضرة! الخيار لديكَ الآن.

رفع عينيه لينظر لها فوجد نظرة تحدي قد قفزت إلى وجهها. إنها على الرغم من تلك الحالة تتشح بالقوة ولو ظاهريًا لتساعده. يعلم جيدًا ما بداخلها وكم هي قوية لتتحمل تلك المشقة معه! اقترب منها بصمت وحاول هو الآخر إبداء بعض الشجاعة. رفع يديه ليربت على كتفيها وهو ينظر إلى الصغير للحظة ثم عاد لينظر داخل عينيها وقال:

– أنتِ على حق دائمًا ولم يخطئ حدسكِ مرة. كم واجهنا سويًا في هذه الحياة! وكم كنتِ خير معين، لا أنسى ذلك! اليوم حياتنا تواجه اختبارًا جديدًا لكن البتول تحفظنا والسيد معنا. لن نخاف ولن نركع. العباسيون يسعون خلف شيء لتلك الكورة. يحاولون سلب قوتنا وطيننا، ولن نقف مكتوفي اليدين. لهذا سأذهب لأبينا طلبًا للمشورة ولتكن مشيئة الرب أينما كنا!

ثم نظر إليها بحنان وطبع قبلة على رأسها وربت بقوة مرة أخرى على كتفيها وقال:

– أشكر الرب في كل صلاة على نعمة وجودكِ.

ثم استدار وهمّ بسرعة قبل أن توقفه، في حين حاولت هي الإمساك بيده لكنه أسرع الخطى ودون أن ينظر خلفه فقد كانت الدموع أسرع من خطواته لتحفر ندوبًا جديدة على وجنتيه لم ترَها بولخاريا.

وكأن قدميه تعرفان طريقها فقد كان عقله غائبًا مع التفكير ولم ينتبه إلى خطواته، والدموع التي حرقت وجنتيه حسرة كانت تُغشي نظره لكنه في نهاية المطاف وقف أمام البيعة. بسرعة مسح وجهه ورتّب ثيابه ثم دلف يطلب لقاء الأنبا ميخائيل.

دقائق وسُمح له باللقاء، وما أن أخذ البركات حتى جلس بين يديه ليقص عليه ما حدث تفصيلًا. لم تبدُ على ملامح الأنبا ميخائيل أي علامات دهشة، وما أن أنهى بخاتي روايته كاملة قال له الأنبا ميخائيل:

– هناك أحد يحيك لكَ مكيدة. ذلك العباسي لم يعترض طريقكَ مصادفة، غير أن روايتك عن تلك المكلومة وصغيرها عجيبة. لم يسمع أحد عنها في هذه الناحية، ولم يسمع أحد أيضًا عن رجل ساعد البشموريين هنا وسُجن. هناك شكوك حول تلك الأحداث.

ذهب عقل بخاتي خلف تلك الكلمات محاولًا إمساك خيط لكنه وجد سؤالًا

يعترض طريقه بشدة، ومن فرط إلحاحه نطقه بصوتٍ عالي وهو يقول في نفسه:

– لماذا يوسف؟

ردّ عليه الأنبا ميخائيل ليقطع عليه حالة شروده وهو يقول:

– ما هي منفعته من خلف ذلك؟ عباسيّ لا يشبع من المال يعترض طريقك. هل تظن أن هناك من يستخدمه مقابل المال؟

كان وقع ذلك السؤال قويًا جدًا عليه حتى أنه مال للخلف في جلسته وكأن هناك من دفعه باليد. بالفعل هناك من دفعه حينما انقشع الغيم عن السؤال ولمح طيفه، حينها نطق بصوت يكسوه الذهول:

– بشاي!

نهض الأنبا ميخائيل عن مجلسه واقترب منه ثم وضع يده على كتفه دون أن يشعر حتى، فما هجم على تفكيره أمر خطير حقًا. هل بشاي خلف ذلك؟ كيف له أن يفعل؟ على الرغم من علمه بحدود تفكير أخيه فتلك المكيدة أبعد مما ينسجها عقله البسيط!

نعم، لطالما نسج المكائد له منذ الصغر وحاول جاهدًا زعزعة ثقة والديه به لكن تلك المكائد كانت بسيطة. هذه المرة الأمر مختلف. إنه يحاول وضع أخيه في دائرة الخارج عن القانون كشخص يهدد أمن العباسيين، يحاول أن يضع العربي في مواجهة أخيه بتلك الطريقة حتى يغضب ويخرج ثورته فيصبح

مهدورًا في لحظة، ولكن هل يفعل بشاي ذلك حقًا؟ هل تلك الأحقاد القديمة تجعل الشيطان يتسيّد عقله هكذا؟ تلك الأطماع التي عبثت بتفكيره؟

صرخ بقوة:

– بولخاريا!

نهض من جلسته وهو ينظر إلى الأنبا ميخائيل الذي لم يفهم ما خلف صرخته الأخيرة. نظر بخاتي له وقال:

– هل يسعى خلف ذلك؟

امتقع وجهه وظهرت على عينيه علامات الخيبة. لقد وقع في الفخ بسذاجة ولا يدري ما الحل! على الرغم من أن هناك جانب آخر يقول له أنه لا شيء مما يفكر به وأن يوسف لا يسعى لشيء ولا توجد مكيدة إلا أنه وَقَعَ رهينة قلق مما حدث.

حاول الأنبا ميخائيل فهم الأمر منه فأمسك بيده كي يجلسه مرة أخرى حتى يوضح له سبب تلك الصرخة، وبالفعل بدأ بخاتي في قصّ رواية لم يشأ يومًا أن يقصها لشخص، رواية طمع أخيه بزوجته.

ما أن انتهى من تلك الرواية حتى تعجب الأنبا ميخائيل هذه المرة مما قُص عليه. حتى مع علمه بخسة بشاي وحياة الطمث التي يحياها إلا أنه لم يذهب بعقله حتى ذلك الحد، حد الطمع بزوجة أخيه وأن بولخاريا هي أحد الأحقاد التي غشت عيني بشاي.

هناك وقف الصمت حائلًا بين الطرفين، طرف في ذهول رواية وطرف في حيرة من الواقع. قطع ذلك الصمت ما قاله الأنبا ميخائيل:

– ربما أنتَ محق. بشاي من المقربين لذلك العباسي، وكنت قد تحدثت معكَ في آخر لقاء عن تلك العلاقة، وبادئ الأمر شكوك بمكيدة لكن بعد ما رويت الآن أظن أن حدسك صحيح.

نهض بخاتي مرة أخرى وهو لا زال يفكر. كان يشعر بالكثير من السيوف تطعن عقله، وزاد عليها ضيق في صدره سببه الخوف ثم استدار فجأة ليقف أمامه وقال:

– إن كان الأمر حول بولخاريا وما حدث هو تخطيط من بشاي لينال منها، فهل لي أن أطلب من أبينا شيئًا؟

اقترب منه الأنبا وقال:

– البيعة ستعمل على حمايتك وأهل دارك دون أن تطلب ذلك. علينا أن نتأكد من تلك المكيدة أولا تمام التأكد ومن بعدها سنفعل ما يلزم لسلامتك و..

قاطعه بخاتي قائلًا:

– أنا لا أسعى لخلاصي الآن. لتكن مشيئة الرب في أمري لكن زوجتي وولدي الصغير لا ذنب لهما! أريدهما تحت وصاية البيعة وألا يصيبهما مكروه.

اقترب منه الأنبا وربت على كتفه مرة أخرى وهو يحاول شد أزره وقال ناظرًا له:

– لنحاول حمايتكَ أنتَ أولا. لقد خدمتم البيعة كثيرًا ولن أنسى لكَ ما فعلت!

نظر إليه بخاتي شاكرًا رده وقال:

– سأذهب إلى داري لأتفقد حالها ومنها إلى العمل.

استدار صوب الخورس وتقدم بضع خطوات ونظر لأعلى ثم قال:

– لتكن مشيئتكَ أنتَ، وإن حدث لنا خطر من مشيئة الناس الخاطئة فنحن نثق أن مشيئتك الصالحة سوف تتدخل وتبطل مشيئتهم.

صَلَب على صدره ثم طلب الإذن بالانصراف وذهب مسرعًا كما حضر.

الفصل السادس

من يعول أحدًا، عليه أن يراقب ظله أينما حط. عليه أن يدرك أن خطواته غير المحسوبة ربما تضعه تحت حد سكين قاطع يحول بينه وبين عائلته، يقطع الحبل السري فتموت تلك الرابطة. إنها مسألة إعمال عقل.

ظل بخاتي طيلة الطريق يفكر بكل ما وضح له بعد تلك الزيارة، ولا زال هناك الكثير يحاول البحث عنه. ربما صدق حدثه بشأن تلك المكيدة ويجب عليه أخذ الحيطة وتدبر أمر عائلته الصغيرة قبل فوات الوقت، وربما كان الأمر مجرد مشادة عادية وذهبت، لأن ما حدث ليس بأمر جلل وعراكه مع يوسف كان شيئًا عابرًا يحدث مع الكثير لكنه مثير للريبة.

لم ينتبه لمن حوله في الطريق وكلما مرّ على جمع تعجبوا، فهو لم يكن بخاتي الذي عهدوه! كان ودودًا ودائم الابتسامة، يقف ويلقي التحية ويطمئن على الجميع لكن ذلك المارّ في الطرقات شخص هائم على وجهه، محطم. كان يهمّ الخطى ولا يقف. إنه حتى لا يلتفت فتعجب الجميع. لم يكن لأحد دراية بما يحيط به ولا ذلك الضباب الذي حجب الرؤية عن بصره، فما وقع فيه من حيرة أشبه بالمشي ليلًا داخل أحراش.

قطع الطريق في عجلة كي يصل داره دون أن يفكر ماذا سيفعل. هل يخبر زوجته؟ هل يأخذها للبيعة مع صغيرها ويتركها هناك بعض الوقت في مأمن حتى يظهر ما تحت تلك المكيدة؟ ولكنه قبل أن يصل لإجابة كان القدر أسرع منه وقطع عليه التفكير حينما لاح له باب داره.

جمع من الخيل ومن فوقه جنود، وبعضهم الآخر على الأرض أمام الخيل. القليل من أهل الكورة يقفون من بعيد يتابعون المشهد. إنها اللحظة التي كان يخشاها. لقد تأخر كثيرًا في حسم أمره وبات الواقع سيفًا على رقبته. بدأ يركض بعدما أعطى عقله أمر ايقاف التفكير، فالتصرف الآن سيكون ارتجاليًا حتى يرى ما يخفيه ذلك الجمع.

قبل أن يصل بمسافة ليست ببعيدة رأته زوجته التي خرجت من الدار ولمح جنديان قد خرجا من داخلها. ما أن رأته حتى صرخت تنادي عليه لتستنجد فهرول مسرعًا تجاهها في حين التفت أحد الجنود صوبه وقال:

– ها هو، ألقوا القبض عليه فورًا!

ارتفع صوت بولخاريا بالصراخ وهي تحمل صغيرها الذي كان يبكي بشدة من كثرة الجلبة وكأنه يشعر بما يحدث حوله، في حين أحاط جنديان بخاتي لكنه دفعهما بقوة متجاوزًا ذلك الحصار الصغير قبل أن يسقطًا أرضًا.

اقترب منه أحد الجنود وضربه بسوطه بقوة لكنه لم يشعر بذلك قاطعًا طريقه باتجاه زوجته، وقبل أن يصل إليها قطع طريقه يوسف ضاربًا فأصاب مؤخرة ظهره فترنح قبل أن يجهز عليه مجموعة من الجنود. أحكموا تقييده بالأيدي لكنه سرعان ما بدأ يقاوم ركلًا بالقدمين ويلوح بذراعيه، فتارة يفلت يدا وما أن يحاول ضرب أحدهم أمسكوه بشدة.

أخذ يصرخ قائلًا:

– دعوني وشأني! أنا لم أفعل شيئًا حتى تلقوا القبض عليّ! أنها مكيدة فعلها الحقير يوسف.

حينما سمع يوسف ذلك نزل عن ظهر فرسه وتوجه صوبه. وقف أمامه مباشرةً وهو ينظر بصرامة بين جنوده ثم أخذ يمرر العصا على صدر بخاتي في تحد وقال:

– ما هي المكيدة التي فعلها الحقير يوسف؟ أنتَ لا تعرف حتى ما هي التهمة المنسوبة إليكَ. تصرخ وتحقّر من تشاء دون علم بجريمتك لكن دعني أقولها لكَ بصوت مسموع للجميع.

استدار من حولهم وهو ينظر للجمع المترقب بخوف، واستطرد بصوت عالي أجش:

– هناك أمر من الوالي بالقبض عليكَ بتهمة اثارة الفتنة ضد الحاكم باعتراف شريككَ ذلك الرجل زوج السيدة التي كنت تتحدث معها قبل أيام، وباستجوابها اعترفت قبل أن تزهق روحها بنفسها خوفًا من عقاب المتولي. كذلك تهمة اخفاء كنز لكَ قد ورثته عن أبيكَ حتى تتهرب من دفع خراجه. هل علمت الآن من هو الحقير؟

علت الأصوات باستهجان بعد ما قاله يوسف، بعدما تجمع بعض آخر من العامة وسمعوا بأمر بخاتي المعروف بحسن الخلق، مساعد المحتاجين، يعين أهل كورته مسلمًا وقبطيًا لا يفرق بينهما، حتى أن بعضهم قد لقبه ببخاتي الطاهر.

كان الهتاف يثير حنق الجنود كثيرًا. وصفهم البعض بالمغتصبين والبعض الآخر بالعرب الملاعين، وغيرهم نادهم باللصوص. لقد وصل بالناس الفقر حدّ الصراخ جوعًا حيث تعنت العباسيون بمضاعفة الجزية والخراج، واستحلالهم قوت الشعب. لم يرحموا ضعف مسكين ولا بكاء مكلومة ولا صراخ أطفال تتضور جوعًا.

زاد على ذلك تمرير ذلك الظلم تحت عباءة الدين فالمنابر تنادي للمأمون كما كان المعروف، من بعده متولي البلاد عيسى بن المنصور الذي طغى واستوحش وعمل على نهب قوت المزارعين لتعزيز جيش العباسيين ونُصرة كلمة الحق كما كانوا يزعمون.

ذلك الجمع كان يصرخ ويندد من بعيد. لم ينتفض منهم أحد لنصرة الطاهر، في حين حاول بخاتي نفسه التملص من أيديهم دون جدوى فأخذوا يضربونه بالعصي والسياط كلما هاج عليهم، ولكن ثورتهم كانت بسب ما يسمعونه من العامة لا بسبب محاولات بخاتي الذي أخذ يصرخ فيهم قائلًا:

– اللعنة عليكم! اللعنة على الكاذبين!

كلما نطق كلما زاد صياح الجمع وكلما زاد الجنود من ضربه وتنكيله على مرأى ومسمع من زوجته المسكينة التي بدأت تصرخ بشدة وهي تبكي، وصراخ طفلها الرضيع يعلو أكثر!

تخطت حاجز الجنود وهرعت صوب زوجها الذي ما أن لمحها تركض حتى انتفض أكثر وأفلت إحدى يديه وضرب بها أحد الجنود فطرحه أرضًا. التفت صوب الثاني الذي انهال عليه بالسوط فصفعه على صدره بكفّه فسقط هو الآخر. قبل أن يدور لمن خلفه، هرع يوسف صوبه وركله في بطنه وأخذ يضربه بالسوط على رأسه وصدره دون رحمة فصرخت بولخاريا بصوت كاد يهز السماء:

– سينجينا الرب يا بخاتي. البتول والسيد معنا. تذكر وعدكَ يا بخاتي! الرب يعلم.

عاد الجنود ليقيدوه بقوة هذه المرة، حين التفت يوسف صوب بولخاريا وتقدم بضع خطوات منها وقال:

– الرب لا يساند المحتالين يا امرأة. اذهبي من هنا وإلا أخذناك معه!

لكنها لم تستمع لما قال وهي تبكي مما يحدث لزوجها! واصلت صراخها الذي أثار غضب يوسف بشدة فذهب باتجاهها وقابلها وهي تجري، وفجأة صفعها على وجهها كي تكف الصراخ ففقدت توازنها ودارت حول نفسها. لم ينتبه يوسف لذلك الرضيع الذي كان يصرخ على يديها، وفي مشهد مخيف سقط الصغير ليسبح في الهواء وهي تحاول إمساكه وقد جحظت عيناها فزعًا.

تلك اللحظة أمسكت قلوب العامة. هناك طفل رضيع لم يتجاوز بضعة أيام يسبح في الهواء بعيدًا عن متناول أمه التي تترنح وعيناها تحاولان إمساكه. فزع البعض بردة فعل تلقائية فمنهم من حاول الركض ومنهم من مد يده بحركة غريزية وكأنه سيمسكه.

النساء تصرخ بفزع فالصغير يتهاوى بسرعة نحو الأرض لكن أمه لم تتمالك نفسها وهي تترنح فسقطت، وقبل أن تقف عيناها وتتمركزان في محجريهما، لم تسقط وحدها فقد سقط باخوم الصغير أيضًا. سقط على رأسه التي انفجرت ليسيل منها الدم وينتهي صراخه للأبد.

في تلك اللحظة.. الدماء تفرش الأرض وتحيط بتلك القطعة الصغيرة من اللحم التي كانت تصرخ بالبكاء منذ لحظات. هل كان يشعر بتلك النهاية؟ كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها البقعة المحيطة بداره ولم ترَه الشمس المتوارية خلف الغيوم وكأنها تختبئ هي الأخرى منهم. لم يكن مقدَّرا له أن ينطق إلا بالبكاء. ربما كانت رحمة من الرب بذلك الرضيع كي لا يرى تلك

الأيام القادمة والأهم ما سيحدث بعد موته فكلما مرت لحظة كلما زادت صِبغة الأرض بلون الدم، كلما زاد غليان دم شخص آخر، دم بخاتي.

لم تستطع بولخاريا النطق واكتفت بتحديق عينيها صوب فلذة كبدها الذي صرعه الحقد، وما أن حاولت رفع رأسها وهمّت بالصراخ حتى شعرت بشيء أمسك لسانها. تجمدت الكلمات على لسانها ولم تستطع فعل شيء، وفجأة غابت عن الوعي.

أما بخاتي الذي كانت عيناه تحدقان صوب بقعة الدم التي تتسع بسرعة فلم ينظر صوب زوجته ويراها تفقد الوعي. لم يشعر حتى بالضربات التي كانت تتزايد لكن فجأة حول نظره صوب يوسف الذي بدأ يتراجع ببطء وهو ينظر صوب الطفل، محاولا الوصول إلى فرسه.

في تلك اللحظة اشتعل بخاتي وكأن هناك من صعقه. تحول من بشري إلى حيوان غاضب يزأر وبدأ بجذب الجنود من حوله بقوة اشعلها الغضب. بدأ يصفع الجنود بقوة ليتطايروا من حوله كأوراق الشجر اليابسة. مع ذلك المشهد دبّ الخوف في قلوب الجنود من حوله فلاذ بعض منهم بالفرار بعد سقوط ثلاثة منهم، وهنا تحرر بخاتي، وذهب نظره مرة أخرى صوب نفس الشخص، يوسف.

وسط الجلبة نظر القاتل ليجد بخاتي وقد تخلص من حراسته واندفع صوبه بسرعة. كانت ملامح بخاتي لا تبشر الا بالسوء ليوسف فهو يعلم جيدًا مدى قوة بخاتي الجسمانية، وربما فطن أيضا للحقد الذي تملك قلبه تلك اللحظة.

التفت يوسف صوب فرسه بسرعة وقفز عليها لكن لم يسعفه الحظ! بينما قدمه اليمنى على السرج وقبل أن يلتف بجسده وتستقر اليسرى على طرف

السرج الآخر، أمسك بخاتي بقدمه الحرة ليجذبه منها بقوة. كانت تلك الحركة كفيلة بإطاحة يوسف أرضًا لكن بقوة الغضب كان الوضع أشد وقعًا فقد انقلب الفرس أرضًا وجسد يوسف مثل خرقة بالية يطيح بها بخاتي!

وقع يوسف على الأرض وسط صيحات الجمع، ومحاولات بعض الجنود السيطرة على بخاتي الثائر كالثور، يطيح بكل من يحاول الامساك به. حاول يوسف النهوض لكن انتبه له بخاتي فجذب أقرب الجنود إليه ثم دفعه بركلة في بطنه ليطير نحو يوسف الذي اصطدم به ليقعها سويًا.

فجأة بدأ بخاتي يصرخ بصوت عالي كادت الأرض أن تنشق نصفين من قوته. كان يصرخ قائلًا:

– يوسف!

بدأ يندفع بقوة صوب يوسف الذي حاول مسرعًا النهوض، وكلما اعترض طريقه أحد الجنود دفعه بقوة ليطير كدمية في الهواء. العجيب في الأمر أن الجمع وقفوا يتابعون الموقف دون تدخل. لقد قطع بخاتي حبله وأصبح من الهالكين، ومن تبعه في تلك اللحظة قد كتب على صدره الهلاك معه حيث لا صوت يعلو على صوت الحاكم ولن تنال توسلاتهم عفو أحد.

كانوا على يقين أن من خالف المتولي كُتب عليه السجن، ومن حاول الاعتراض كان نصيبه الجَلْد والتنكيل. حتى مع بلاغهم بثورة البشموريين، كانت الأماني تذهب صوب الأرض الموحلة، ويبقى الجسد هنا مربوطًا بخوف من العقاب لكن الأمنيات لا تجلب الحرية.

نهض يوسف وهو يترنح لكنه بدأ يركض خوفًا لكن سرعة بخاتي كانت أكبر

من سرعة يوسف! أمسك به من دبره فشق ثوبه، وبقوة أمسك به من ذراعه وجذبه ليرتطم بصدره الذي أحكم مسكته. بدأ بضرب رأس يوسف بقبضته والأخير يترنح، وبسرعة اجتمع عليه الجنود محاولين إبعاده عنه دون جدوى.

فجأة ركل يوسف بخاتي بقدمه ليضرب ما بين قدميه. من شدة الركلة ارتخت يد بخاتي ليترك يوسف الذي أمسك رأسه من فعل الضربات، وبدأ ينظر حوله بحثًا عن سيفه. ما أن وجده ركض صوبه ثم أمسكه لكن بخاتي كان خلفه تمامًا هذه المرة أيضًا، وقبل أن يلتفت باغته بضربة في ذراعه ثم صدره ليسقط على أثرها أرضًا.

هنا لمعت عينا بخاتي حينما وقعت على السيف، وبسرعة كالبرق انحنى ليلتقطه وبالفعل أمسك به قبل أن يدركه يوسف. في تلك اللحظة كان الغضب من أمسك السيف، وحينما يتحكم الغضب بعقل إنسان يعميه عن التفكير. تشتعل الدماء في عروقه وتتصلب أطرافه كالحديد. يتحول بياض عينيه إلى نار تلتهم ما تلقفه.

قبل أن يحاول أي من الجنود إدراك بخاتي كانت يده هي الأسرع لتلبي نداء الغضب فتنفجر عين جديدة من الدماء بعدما شجّ النصل عنق يوسف واستقر فيه.

مشهد صامت ساد الأجواء. لم يتحرك أحد من مكانه وكأن على رؤوسهم الطير. بخاتي لا يزال ممسكًا بالسيف بعدما سحبه من مكانه ليزداد تدافع الدم، يوسف يترنح وعبثًا يحاول التشبث بشيء ثم استقر مكانه ممسكًا رقبته بكلتا يديه وهو ينظر إلى قاتله وقد بدأ يتهاوى ليسقط أولًا على ركبتيه ومن بعدها يدور ليسقط على ظهره فيبدأ الدم بحفر طريقه حول جثة يوسف.

سقط صريعًا، وفي تلك اللحظة تحول نظر بخاتي صوب زوجته الممددة على الأرض دون حراك، وفجأة صرخ باسمها وبدأ يركض صوبها. وكأن تلك الصرخة أخافت الطير من على رؤوس الجمع لتبدأ الصيحات بالعلوّ ما بين تهليل وبين شهقات خوف. منهم من ركض صوب بخاتي ومنهم من تراجع ليحتمي بالبيوت لكن بخاتي لم يستمع لكل تلك الجلبة.

ما أن وصل صوب زوجته، جثا على ركبتيه يتفحصها. بدأ بهزّ جسدها بيده اليسرى ولا يزال السيف ملتصقًا بيديه، وفجأة استدار لينظر يساره فوجد طفله الصريع ومن حوله بركة من الدماء. بدأ يصرخ والدموع تنهمر من عينيه غيثًا لا ينقطع ثم أفلت السيف أخيرًا ليلتقط جسد صغيره فرفعه إلى وجهه ينادي عليه في موقف مهيب لكن باخوم الصغير قد رحل وترك ذلك العالم القبيح ليذهب إلى الملكوت قبل أن يرى الدنيا مرة واحدة.

لاحظ الجنود الموقف بعد إفلاته للسيف فلم يتحرك أحدهم قبلها خوفًا من نصله، لربما نال من أحدهم كما نال من يوسف لكنه الآن ينتحب ويصرخ بجنون. في تلك اللحظة اندفع الجنود صوبه من كل اتجاه، وما أن وصلوا صوبه حتى انهالوا عليه بالضرب وهو لا يزال يحتضن جثة رضيعه دون أن يفلتها.

لم تكن ضرباتهم أقوى من ألمه لكنه بدأ ينهار من شدة الضرب ليسقط أرضًا بعدما أفلت رضيعه الميت فبدأ الجنود بتوثيقه بالحبال وبعضهم لا يزال ينهال عليه ضربًا بلا رحمة وهو يتأوه بصوت متحشرج، تارة ينادي بولخاريا وأخرى ينادي باخوم حتى خارت قواه وبدأ يتمم بكلمات غير مفهومة بعضها باللسان القبطي فقد كان يهذي.

استسلم أخيرًا بعدما أنهكه الضرب وأصبح ممددًا على الأرض والجنود قد أحكموا وثاقه قدميه وكذلك ذراعيه إلى صدره ثم ربطوا الحبال بأحد الجياد. صاحوا بالجمع أن ينصرف بتهديد ووعيد فهربوا خوفًا من بطشهم، وما أن ركبوا خيولهم حتى حمل أحدهم جثة يوسف أمامه وآخر بدأ بجر بخاتي خلفه، في مشهد لم يتحمل قسوته الجمع الهارب وعيونهم معلقة ببولخاريا الملقاة على الأرض وزوجها المسحوب بالحصان، دون أن يتحرك أحد من جمع المتابعين فالخوف وقف بينهم وبين إبداء ردة فعل فجميعهم يعول كومة لحم يكاد يطعمها بشق الأنفس فإن رحل، ماتت عائلته جوعًا.

هكذا كان الخوف يكمم أفواههم ويقطع ألسنتهم، فلا صوت في تلك البلاد يعلو فوق صوت الحاكم.

الفصل السابع

كانت الأرض تفور شرقًا وغربًا من تعنت العباسيين. لم يكف عيسى بن المنصور عن تكليف ولاته بتكثيف جمع الخراج من القبط حتى أرهقوهم، وأرض الحوف تشتعل بثورات القيسيين ضد الظلم العباسي، وربما أكثر من أنهكه الظلم كان البياماي– أهل بشمور – فقد عاملهم العباسيين كالحيوانات في الحرث وجرّ الطواحين لطحن الحنطة، ولم تسلم نساؤهم من أفعالهم المشينة! تعرض لهم العباسيون وانتهكوا أعراضهم علانية، ومن نطق ضربوه ومثلوا به حتى الموت فقتلوا منهم الكثير وعُذّب منهم آخرين، على الرغم من علمهم ببأس البشموريين وغضبهم.

ربما تناسوا أن من ساعدهم في طرد الأمويين هم أهل بشمور حيث قامت ثورتهم الأولى على الأمويين بقيادة قائدهم مينا بن بكيرة، وما أن أحكم العباسيون قبضتهم على حكم مصر، أكرم الخليفة القبط فخفّف عنهم الخراج والجزية وأحسن معاملتهم وأوصى بهم لما فعلوه معه لكن سرعان ما تتقلب البطن ويعود الحاكم لفرض سطوته فزاد الخراج وأرهقهم بالجزية، كما كان حال كل من حكم تلك الأرض الطيبة، ما أن أحكم قبضته وتملك أهلها من ودّ حتى أذلهم وعمل على كسر شوكتهم بالقمع وإرهاق كاهلهم بالتنكيل.

إنها الأرض الطيبة، كلما مرّ عليها حاكم أشعل فيها الفساد فاستمر، ومن حاول الإصلاح أبعدوه.

انتفضت كل الأرض على تعنت عيسى بن المنصور وبدأ البشموريون بالامتناع عن دفع الجزية تمامًا لكن ما وصل إلى مسامع الخليفة المأمون كان الثورة وامتناعهم عن دفع الجزية ولم يصله مدى ظلم ولاته، مما دفعه لإرسال الأفشين حيدر بن كاوس التركي قائد جيشه لقمع تلك الثورة.

بالفعل وصل إلى أبواب بشمور لكنه لم يفلح حتى تلك اللحظة في اختراق الأرض الموحلة الوعرة! كانت مستنقعات ضيقة الممرات لا تصلح لعبور فرد دون حرص، ومن حاول العبور وانزلقت قدماه، ابتلعه الوحل وغرق. كان ذلك الموقع الحصين يميز البشموريين في حربهم المستعرة مع الأفشين، وليلًا كان دور البياماي لردّ الهجوم بالخروج عبر تلك الممرات ومواجهة جند الأفشين وقتلهم ثم العودة إلى حصنهم الذي صنعته الطبيعة لهم، فكان الكرّ والفرّ يسيطر على اليوم دون هوادة.

أما قصر الشمع فقد حاول كثيرًا السيطرة على تلك الثورة في بقية الأنحاء، وما يخص البياماي كان الأنبا يوساب بعد توليه البطريركية حزينًا أشد الحزن على ما يحدث لأولئك المساكين فحاول مرارًا وتكرارًا إرسال رسله لهم بالمكاتيب وحثهم على وقف الثورة حفاظًا على حياتهم وطاعة الحاكم وتجنب تلك الحرب غير المتكافئة لكنهم لم يصغوا لكل تلك الرسل!

مرة تلو الأخرى بدأ البشموريون بطرد الرسل حتى وصل بهم الأمر إلى ضربهم وتجريدهم من ثيابهم بداعي أنه من العار أن يطالبنا رجال دين بالرضوخ والانكسار. نعتوهم بمحاباة الحاكم خوفًا ونسوا تعاليم دينهم وأبناء جلدتهم ودينهم ثم طردهم من أرض بشمور أشد طرد، مما جعل الأنبا يوساب يشفق على أولئك المساكين كما وصفهم لكن الحاكم قد وصفهم بالخارجين عن حكمه وأوجب قتالهم فهكذا كان. كل من قال لا جزية ولا خراج، وجب

عليه الموت.

كان ذلك هو حال بخاتي الذي نعتوه بالخارج عن الحاكم، محابي الثورة وها هو الآن يدفع ثمن تلك التهمة الزائفة التي ألصقها به أخاه الوحيد، بشاي.

قاد الجند بخاتي إلى السجن وسط حراسة مشددة بعد أن نكّلوا به أشد تنكيل في الطريق فخارت قواه قبل أن يزجوا به في سجن مظلم دون طعام حتى يحين موعد إرساله إلى الفسطاط لينظر المتولي في أمره بعد مقتل أحد الجند ومن قبلها تلك التهم التي لحقت به من مساعدة البشموريين، وكذلك التهرب من دفع الخراج عن كنزه المزعوم.

كان عقله ثابتًا عند تلك النقطة، تلك الصورة التي لن ينساها وكيف انتهت حياته في لحظة. كيف لأحدهم أن يعتدي بالضرب على زوجته؟ وكيف مات صغيره أمام عينيه؟ ومن فعل ذلك؟ يكاد لا يبرح ذكر أخيه الذي خرّب حياته بمطامعه ونزواته الملعونة! كان لسانه على فترات يردد كلمة واحدة:

– زوجتي أمانة لديكم، لا تبرحوها!

كانت تلك الجملة لا تفارق لسانه إن نطق.

ليلة كاملة وهو يتأوه من الألم. ليس ألم الضرب ما كان يوجعه ولكن ألم قلبه على ما حدث. لم يشعر بانقضاء الليلة، كذلك لم يرَ ضوء النهار. حتى برودة السجن لم تؤثر فيه فكان هناك بركان بدأ يثور داخله. بدأ يستجمع بعضًا من قواه فبدأ ينهض متجهًا صوب ذلك الباب الحديدي وهو يصيح:

– اللعنة عليكم! سأقتص منكم لو أصاب زوجتي مكروهًا. اللعنة على الغاصبين!

أخذ يضرب الباب بقوة تتزايد كلما صاح فكانت قواه تعود إليه رويدًا رويدًا، وعلى فترات كان يحضر أحد الجنود ليهدده بالعقاب وهو يضرب باب السجن من الخارج لكن ما أن ينطق بخاتي حتى ينتفض الجندي ويهرب.

كان يزأر كليث في ثورة فيشعرون أن ذلك الباب سيسقط فوق رؤوسهم فسرعان ما يهربون إلى متولي السجن ليخبروه فيطلب منهم تركه. سيمر عليه الوقت وتخور قواه، وبعد القليل من الوقت سيذهب صوب الفسطاط.

استمرت حالة بخاتي في ثورة لا تهدأ حتى حل الليل فجلس بسبب التعب في زاوية السجن. ربما انتظر الظلام ليزيد عتمة الغرفة كي يترك الدموع تنهمر، فما أن جلس حتى أخذ يبكي بصوت مكتوم وعيناه تفيضان دون توقف. حتى جسده كان ينتفض وهو لا يكفّ عن تذكر تلك الصورة، صغيره المصروع وسط بركة الدماء، زوجته الممددة على الأرض، يوسف والسيف يشج رقبته، وفي النهاية تظهر صورة بشاي وهو يبتسم وكأنه انتصر فينتفض جسده حينما يتذكر مطامع بشاي بزوجته وهي دون حماية في تلك اللحظة، والفرصة مناسبة لبشاي حتى ينال مراده فيصرخ من جديد دون هوادة!

يومان لم يكف فيهما عن صراخه إلا قليل القليل حتى أن الجميع تعجب كيف لذلك الشخص أن يفعل ذلك. لم ينَل من النوم إلا القليل! لم يأكل كسرة خبز! وكلما مر الوقت كان صراخه يزيد وهزات باب السجن تزيد حتى خُيّل لهم أن الباب سينفتح أو ينهار الجدار لكن في اليوم الثالث حدث العكس فقد سكن صوته!

ما عاد يصرخ ولا يصدر أي حركة حتى ظن بعض الجند أنه قد مات! وبأمر من متولي السجن ذهب أربعة من الجند ليتفقدوا حاله. بحذر فتحوا الباب

ودخلوا مشهرين سيوفهم فوجدوه ممددًا على الأرض لا يقوى على النهوض. يتأوه بصوت خافت يكاد لا يسمعه أحد! نظروا إلى بعضهم البعض بتعجب وانصرفوا بسرعة ليخبروا متولي السجن الذي أمرهم بتجهيز العدة للخروج به صوب الفسطاط قبل أن يحدث له شيء.

حل الصباح والسماء متشحة بالغيوم تنذر بالمطر. ربما لتبكي على حال ذلك المكلوم، وربما لشيء آخر. استعد الجنود للخروج من بلبيس صوب الفسطاط وقد أحكموا وثاق يدي بخاتي أمام صدره. أركبوه بغلًا وأمسكوا لجامه، يتبعه جندي واحد على فرسه.

لم يصدر أي حركة مقاومة وكان كجثة تتناقلها الأيدي دون نطق. عيناه المتثاقلتان تكادان لا تبصران ما حولها، وزخات المطر تداعب جبينه وكأنها تحدثه بأمر بينهما. بتلك العينين المتثاقلتين، نظر جانبًا صوب بوابة بلبيس وهو يقول في قراره نفسه: يا ديار الخير يا منزل الرسل، لن يطول الفراق! أيتها البتول أحفظيها حتى عودة

انطلق الركب مبتعدًا عن بلبيس صوب الفسطاط.

مرّ الوقت على الركب دون توقف وبخاتي على حاله، يترنح على بغله ويكاد يسقط لكنه يتمالك نفسه حتى مر الركب على منطقة أحراش في الطريق فبدأ الجنود يتحدثون عن خبر الجراد الذي هاجم البلاد أواخر الصيف، يأكل الأخضر ويحيل الأرض يبسًا، ولا يترك عليها من النبت ما ينبت. قالوا إنهم سمعوا أن المنطقة المحيطة بالفسطاط أصبحت جرداء بلا زرع بعدما مرّ بها. ربما عند عودتهم من الفسطاط لن يجدوا تلك الأحراش هكذا.

طلب منهم قائدهم الإسراع حتى يخرجوا من تلك الأحراش فبدأ الجنود

بالإسراع وتباعدت المسافات بينهم حتى أن آخر الجنود قد سبق بغلة بخاتي، محاولًا الفرار فربما صدق قول من معه عن الجراد والأحراش. ربما تختبئ وحوش الأرض خلف تلك الأحراش أو ما هو أسوأ!

فجأة بدأت السماء تمطر بقوة وتزأر مما أزعج الخيل فتفرق الجمع على أن يجتمعوا خارج الأحراش. في تلك اللحظة فتح بخاتي عينيه، وخلال لحظة جذب الحبل بيديه ليشد الفرس الذي يجذبه نحوه ليقع الجندي الذي يمتطيه أرضًا. قبل أن ينهض ليرى ما يحدث، قفز بخاتي فوقه بسرعة ليركل رأسه بقدمه فيقع مرة أخرى متدحرجًا.

لقد خدع بخاتي الجميع ليخرجوه من محبسه. تظاهر بالوهن حتى ينال فرصة، ربما بالسجن فيحاول الفرار أو أثناء نقله كما حدث الآن، وكان له ما تمنى. حتى الظروف قد ساهمت في انجاح مساعيه. تخلص من الجندي الذي كان يراقبه وبدأ بفك وثاقه بفمه بسرعة، وما هي إلا لحظات حتى أصبح بخاتي حرًا لكنه انتبه إلى الجندي الذي كان يترنح وهو يحاول طلب النجدة من زملائه.

أسرع يركض صوبه ثم أمسك رأسه وبدأ يضربه بيده بقوة والآخر يترنح ثم استند على جذع شجرة واستدار فضرب رأس الجندي به فسقط مفارقًا للوعي، وقبل أن ينتبه الجنود المرافقين لغياب السجين ومرافقه، كان بخاتي قد نزع عنه ثيابه وأخذ سيفه وامتطى جواده بسرعة ذاهبًا صوب بلبيس ليعود لينجد زوجته، بولخاريا.

الفصل الثامن

إذا تفشى الظلم فلا يد تعلو فوق يد المستبدين، وإذا شحّ القوت أصبح أرخص ما يباع هو الإنسان! هكذا كانت سيرة تلك الأرض الطيبة، تلك التي أسماها نوح النبي الأرض المباركة وهو يناجي ربه بالدعاء لنسله بعدما ناداهم فمنهم من لبّى ومنهم من لم يسمع.

سمعه حفيده، مصرايم بن بنصر بن حام ولد نوح وهو نائم إلى جواره فطلب منه أن يدعو له فدعى أن يسكن الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد والتي نهرها أفضل أنهار الدنيا، وأن يجعل فيها أفضل البركات كما دعى أن يسخر الله له ولولده الأرض ويذلّلها لهما ولقومهما.

تلك الأرض التي طمع بها الطامعون، الأرض الخيرة الخصبة، موطئ قدم الأنبياء عمّرها جنود شداد وبنوا عليها ما بنوا من عجيبات الدنيا فأهلكوها وحلبوا ضرعها وجفّ على أولادها. الحكيمة ذات الوجه الأخضر، اصفر وجهها جدبًا فأهلكوها جزية وخراجًا واستباحوا ما بها وقتلوا نسلها. أرى في ذلك الوصف وجه بولخاريا الحزين.

لم يطرق عليها باب الدار سوى ميخائيل بصحبة بعض الصالحين ممن اتخذوا بخاتي خليلًا لهم منذ الصغر فكان خير عون لهم، ومجموعة من نسوة الكورة وفي عجالة غادروا خوفًا أن يراهم أحد فيصبح مصير رجالهم نفس مصير بخاتي. لم تلحظ ذلك فهي تجلس في وسط الغرفة على الأرض وقد كُشف شعرها حيث خصلاته المتفرقة غير المهذبة على غير عادتها، فهي ليست في تلك الحياة.

كل ما تراه أمامها هي خرقة عليها دماء باخوم، ذلك الثوب الذي بقي منه. الثوب الذي شهد تلك المأساة هو نفسه آخر قطعة من عبقه. كانت تحتضنه وتضعه على صدرها وكأنها ترضعه، وحينما تشعر بما تفعل ترفع الثوب أمام عينيها وتبكي ثم تضعه أمام أنفها لتشم رائحة صغيرها ثم تصرخ عليه مرة واحدة فقط ويسكن كل شيء بعدها.

تلك الزهرة الطيبة اليانعة تحولت إلى حطب يابس. إنها مثال يتكرر وسيتكرر. إنها صورة تتنفس من تلك الأرض المباركة التي طمع فيها كل من شمّ عبقها ولم تسلم من كيد الكائدين، وها هي المكيدة أوقعتها أرضًا بفقد رضيعها وسجن زوجها الحبيب. ها هي في عالم غير العالم، تنتظر رحمة الرب ولكن تلك المكائد لا تُحاك لتُترك دون اكتمال فمن كان خلف تلك المكيدة ليس بالبعيد عن بولخاريا. لقد راقب عن كثب ما حدث منذ البداية وينتظر الظفر بالزهرة الطيبة، وقد حان وقت قطافها.

الليل عتمة تستر تحركات الطامعين، حالك يخفي تحت جناحه اللصوص المغتصبين. هكذا انتظر بشاي العتمة كي يتحرك دون أن يلاحظه أحد. اقترب من باب بولخاريا التي لن تشعر حتى بطرقات الباب فالباب مفتوح لمن ذهب للمواساة. لم يدرك آخر من تركه أن هناك نوعًا آخر من البشر سيأتي لغرض غير المواساة، نفر من الشياطين ذاهب في طمع.

اقترب بشاي من الباب واختلس النظر داخل المكان فإذ بها تجلس على الأرض ممددة، مكشوفة الساقين وتضع أمام عينيها نفس الخرقة. أخذت عينا بشاي تسترقان النظر وتتفحصان معالم جسدها المنهك. نزواته الشيطانية كانت ترى شيئًا آخر، جسدها الأبيض الناعم الذي بدى منه جزء من الساق حتى القدمين، ذراعيها المكشوفين، شعرها المبعثر فوق عنقها. حتى

صوت تأوهاتها الحزينة بدى له شيئًا آخر.

لا مجال للعجب، فمن سولت له نفسه الطمع بعرض أخيه لن يشعر بتلك الأوجاع وتأوهات تلك المكلومة، ولن يرحم ضعفها ويشفق عليها. ذلك المتحَيوِن لا يملك من الشعور أدناه ولا من العقل القليل. يفكر بشهوانية ونزواته تسعى خلف فريستها حتى وإن كانت جسدًا ميتًا.

ظل يتفحصها بضع دقائق دون أن يلتفت حتى خلفه لكنه ملّ من المراقبة فقرر التقدم. بدأ يدفع الباب بهدوء خشية أن تشعر، وما أن اتسعت فتحة الباب ليعبر جسده النحيل حتى نظر خلفه، يتفحص الطريق وبعدما تأكد من خلوه سرق جسده من الخارج ليُخبّئه داخل تلك الفتحة، وتقدم بحذر صوب بولخاريا.

– أخيرًا يا بولخاريا، أنتِ لي!

نطق تلك الجملة بصوت خافت فلم تسمعه لكنها ظلت تنادي صغيرها وهي تبكي بصوت خافت مُتعب، ولا تدري عن المحيط القريب منها شيئًا. أخذ يقترب شيئًا فشيئًا حتى أصبح خلفها تمامًا ثم جثا على ركبتيه واقترب من عنقها ليشم رائحة شعرها المبعثر، وكرر ذلك مرات متتالية ثم بدأ بلمس خصلاتها وقبض بأصابعه على بضع منها فأخذ يقبلها ويشمها كالثمل لكنه توقف فجأة حينما قالت:

– أخيرًا أتيت يا بخاتي! لماذا تركتني وحيدة وذهبت؟ لا تذهب مرة أخرى، أرجوك!

لكنها لم تلتفت وهو متجمد مكانه بعد تلك الكلمات. وجدها فرصة سانحة

فهي لا تشعر بنفسها ولا من حولها فتقدم أكثر واحتضنها من الخلف وأخذ يقبل رقبتها وهي تكرر ما قالته لبخاتي.

بدأ يتحسس جسدها وهي تبكي ولا يزال اسم بخاتي على لسانها. كانت المكلومة تهذي فما مرّ على قلبها لا يُحتَمل. كانت تحتضن صغيرها وفجأة يطير من يديها لتراه يسقط أمام عينيها وهي لا تقوى على التقاطه. يقع وسط بركة من الدماء وهي مكبلة لا تستطيع التحرك صوبه. كانت تلوم نفسها بعد فقده. لقد ذهبت به إلى حتفه حيث كان يجب عليها البقاء محلها لكن مصير زوجها كان الفاصل بين الصواب بالتفكير والقلب بالتدبير، والآن من بعد ما حدث ومع أنها لا تعلم أين زوجها لكنها حتى لم تسأل. كل تلك الضربات قسمت قلبها وربما حولته أشلاءً صغيرة فكيف لها أن تشعر بالدنيا حولها؟

أما ذلك المُتَحيون فلم يشعر بها وهي تبكي. كانت نزواته الحيوانية تقوده نحو ما يفعل. بدأ يداعبها ويرفع عنها ثوبها بسرعة وهي لا زالت تبكي. لم يلحظ أنها مستكينة حتى لكنها تشبثت بتلك الخرقة وأخذت تضمها وعقدت ذراعيها على صدرها مما صعّب عليه خلع ثيابها لكنه لم يجد في ذلك عائقًا كي يكمل ما أتى لأجله.

في عجلة بدأ باغتصابها وهي تبكي وتنادي زوجها بصوت ضعيف لكنه فجأة نطق وقال لها:

– لقد تخلصت من ذلك الغبي كي أنعم بهذه اللحظة لكن حتى في غيابه يحضر اسمه. كفي عن نطق اسمه وإلا قطعت لسانك يا امرأة!

فجأة انتفضت حينما سمعت ذلك الصوت. تلك المكلومة أدركت القليل مع حالة الوهن المصاحبة لها. لقد دب الصوت داخل قلبها وكأنه سكين اخترقه.

أخذت تدفعه عنها على الرغم من ضعفها وتهالك جسدها لكنه تمكن منها وأحكم تقييدها بجسده من فوقها.

فجأة بدأت تصرخ لكنه صفعها على وجهها ثم وضع يده على فاهها حتى يمنع الصرخات، وحاول اكمال ما يفعل لكنها قاومت، ومن حين لآخر كان يصفعها على وجهها ويضربها على رأسها حتى بدأت قواها تخور ولم يبقَ منها إلا الدموع وبعض الحركات الضعيفة في محاولة للإفلات منه دون جدوى.

كل تلك المحاولات لم تمنعه من إتمام ما كان يفعل. وصل لمبتغاه وهي لازالت تبكي وتحاول إبعاده ثم نهض من فوقها محاولًا ترتيب ثيابه لكنها صرخت فصفعها على وجهها بقوة وهي تقف لتترنح وتدور حتى اصطدمت بالحائط المقابل لها، ولسوء حظها كان ذلك الارتطام في غير مكانه فقد اصابت القنديل المشتعل على الحائط ليسقط على ثوبها وزيت القنديل على جزء كبير منه ثم على الأرض ليشعل النار في بعض الأقمشة المجاورة لمخزون الحنطة.

بدأت النار بالاشتعال في ثيابها وفي الأرض وهي تصرخ. ما أن رأى بشاي ذلك التف صوب الباب وهرع ليغادر المكان قبل أن يحضر العامة لكنه حينما أفلت قدمه من الداخل وأصبحت أولى قدميه خارج البيت، أصطدم صدره بشيء حار. شيء مشتعل على الرغم من كونه جسد انسان. لقد اصطدم بهلاكه المحتوم، ببخاتي.

لحظةٌ رأى فيها بشاي تلك العينين السوداوين قد تحولتا للون الحقد وبسرعة تحولتا الى حمراوين، وكأن الشيطان قد نزل على الأرض ليقف في جسد بخاتي الذي ما أن رآه حتى أمسك به من رقبته وبدأ بخنقه بقوة فحاول الخلاص منه دون جدوى.

كان جسد بشاي يحجب الرؤية عن داخل المنزل وبخاتي لا يرى شيئًا سوى ذلك الملعون فبدأ بخنقه بقوة أكبر. فجأة سمع صوت بولخاريا تصرخ وتستنجد به فبدأت يده تتراخى وحاول النظر إلى داخل البيت لكن فجأة وبدفعة قوية أفلت بشاي منه وحاول الركض لكنه لم يبتعد. كانت يد بخاتي أسرع فأمسكت به وألصقته بالحائط فارتطم رأسه بقوة. هناك لفت نظر بخاتي الضوء المنبعث من الداخل وفجأة لمح النيران التي بدأت تأكل كل شيء.

صرخ بقوة قائلًا:

– بولخاريا!

جرى ينجدها من تلك النيران وحاول بكل ما يملك إطفاءها لكنه تأخر فقد التهمت النيران ثيابها وبدأت تأكل جزءًا كبيرًا من ذلك الجسد الضعيف، وهي لا تزال تبكي وتنظر له. تناديه وتحاول إمساكه.

كان ذلك المشهد مهيبًا. في لحظات قليلة تحول جسدها إلى طعام للنيران. أحضر جرة الماء وبدأ بإطفاء جسدها المنتفض بفعل النيران لكنها لم تنطفئ كلها. نظر حوله فوجد خرقة كبيرة على الأرض فأسرع يمسك بها وبدأ يلف بها جسد زوجته بسرعة.

بعد عناء، أخمد حريق جسدها وأبعدها عن باقي الجزء المحترق من الأرض. أمسك وجهها المحترق وهو يبكي ولا يزال يصرخ باسمها لكن العجيب أنها كانت تبتسم حينما رأت عينيه. حاولت مدّ يدها لتمسح دموعه. على الرغم من كل تلك الآلام التي تشعل جسدها من الحرق، لا تزال الابتسامة على وجهها وعيناها لم تجفا من الدمع بعد. بوهن شديد بدأت تنطق بصوت

خافت وقالت:

– كنت انتظركَ حتى تسمح لي. لم أرضع باخوم منذ يومين ويجب أن أذهب لأرضعه. ليكن السيد والبتول معكَ وليحفظك الرب! سأذهب الآن.. يا.. زو..

سقطت يدها وأفلتت أخيرًا الخرقة التي مع اشتعالها لم تقع أبدًا، وماتت بولخاريا.

صرخ بخاتي وكادت صرخاته تشعل الأرض وتوقظ الموتى. البيت يشتعل وهو يحتضن جثتها ويبكي. كان يصرخ قائلًا:

– لا، لا، لم أسمح لكما بالذهاب. لا تذهبي! أرجوكِ، أرجوكِ!

كان يصرخ وهو يرج جسدها بقوة لكنها لم تجِب فلا سبيل لجثة مسلوبة الروح أن تنطق ثم رفع رأسه صوب السماء وصرخ قائلًا:

– لماذا؟

هناك تذكر سبب كل تلك المعاناة. التفت خلفه فوجد بشاي وقد بدأ يستعيد نفسه ويحاول النهوض. أعاد جثة زوجته مكانها بعيدًا عن النيران ونهض ينظر خلفه. حينما حاول بشاي النهوض انتبه لأخيه متجهًا صوبه بغضب. حاول النهوض وهو يتخبط في نفسه هربًا لكن يد الغضب كانت أسرع. انقض عليه بسرعة كتلك النيران وأمسك به من دبرٍ وأنهال عليه بالضرب بقبضة يسراه خلف رقبته وجذبه داخل المنزل وأغلقَ الباب.

أصبحت عيناه كأعمى لا يرى إلا السواد وفي ظاهرها بركان يقذف الحمم.

لم يكف عن جذبه حتى وصل منتصف البيت فرفعه لأعلى في الهواء وسط النيران التي لم يكن لهيبها أقوى من لهيب احتراق زوجته بين يديه، وهو يستنجد صارخًا لكن لا مجيب ثم ألقى به أرضًا. فجأة رفع قدمه اليمنى ليدهس وجهه ويركله، والآخر يحاول إبعاده دون جدوى.

التفت بخاتي حوله يبحث عن شيء أقوى كي يضربه به وفجأة وقعت عيناه على فرع شجرة كان يستخدمه في رفع مكاييل الحنطة. هرع في جلبه قبل أن ينهض أخوه، وبالفعل أمسك الفرع في حين حاول بشاي النهوض فتركه حتى نهض وبدأ يترنح والدم يسيل من رأسه، وما أن التف نحو بخاتي حتى انهال على رأسه ضربًا بذلك الفرع حتى وقع على الأرض مرة أخرى لكن سيد الغضب لم يشبع بذلك.

لمعت عيناه حينما وجد أن النار بدأت تأكل كل شيء. نظر ناحية جثة زوجته فزادت نيرانه ثم صوب المُلقى على الأرض. ثم نظر صوب جرّة صغيرة فيها زيت كان يستخدمه للقناديل فأحضرها وسكبها كلها على جسد بشاي وبدأ يضرب مرة أخرى وجه بشاي الذي ما عاد يقوى على الحركة.

هناك انحنى ليرفع جسده، وبغضب قذف به صوب النيران. فجأة دبت النيران في جسده وبدأ يصرخ وحاول النهوض. أعاقه بخاتي بوضع قدمه على رقبته وبدأ بخنقه حتى بدأت عيناه تجحظان. النار بدأت تنال من جسد بشاي الذي انتفض بسبب الخنق والحرق وتحشرج صوته ما بين صرخات الألم المكتومة بالخنق والخنق نفسه.

النار تشتعل في قدم بخاتي الذي لم يتحرك وكأنه لا يشعر. كانت قوة الغضب أقوى من الشعور بالنيران لكنها كانت كفيلة بإشعال نار أخرى داخله ليزيد

من ضغط قدمه على تلك الرقبة حتى جحظت عينا بشاي بقوة وانتفض جسده نفضة قوية ثم سكن كل شيء. لقد مات الملعون.

من لم يقتُل من قبل، يصعب عليه وقعها أول مرة. يخاف، يرتعد. حتى بعد القتل تنتابه

الهواجس والخوف مستيقظًا أو في النوم لكن بعدها يصبح القتل سهلًا. دائما القتل الأول هو الأصعب ثم بعدها يصبح القتل كالسهل الممتنع، كذبح طير.

استقرت عينا بخاتي على جسد أخيه الذي تلتهمه النيران بعدما ابتعد عنه بضع خطوات ثم ذهب بنظره صوب زوجته وبدأت عيناه تدمعان قبل أن يذهب إلى جسدها ويجثو على ركبتيه دون أن يكترث للنيران التي تأكل كل شيء. برفق رفعها على يديه ونهض متجهًا صوب الباب. لم يرد لجسدها أن تكمل النيران حرقه فخرج ووضعها أرضًا في مكان بعيد بضع خطوات عن البيت. نظر إليها نظرة الوداع وهو يقول:

– لماذا؟ لقد عدت لكِ يا بولخاريا.

احتضن جسدها بقوة وهو ينتحب. دموعه كنت تتساقط بغزارة بينما شفتاه تطبعان على رأسها القبلات بحزن شديد. يرجّ جسدها بين حين وآخر دون ردّ.

نظر إلى السماء المتشحة بسواد الليل وصرخ:

– لا.. لا تذهبي!

مرت الدقائق وهو يبكي. لم يشعر بها كما لم يشعر به أحد من الناس. لقد كان وحيدًا تمامًا معها، وكانت لحظة وداعها مبكية لا يتحملها بشر. نظر إلى وجهها المحترق وقال:

– لقد انتهت حياتي معكِ يا بولخاريا، والآن كُتب عليّ الفرار حتى دون وداعكِ وتكريمكِ. من الصعب تركك هنا والأصعب بقائي دون النيل منهم في سبيل حقك فهم سبب ما حدث. سأحرق كل من تناله يدي مثلما أحرقت ابن أبي وأمي. الوداع يا زهرتي الجميلة.

نزع قلادتها عنها ولفّها حول معصمه ثم نهض وبدأ يبتعد صوب الحصان قبل أن يحضر أحد لكن قلبه أوقفه لينظر صوبها مرة أخرى وهو لا يزال يبكي.

– وداعًا بولخاريا.

في عتمة الليل الذي شهد كل شيء دون غيره، وقف يودع زوجته وبيته وأرضه. لم يكن يحسب لتلك اللحظة حساب، ولم يفكر حتى في حلمه بذلك العذاب. تثاقلت قدماه وقلبه متعلق في مكانه والرغبة في البقاء لتكريم زوجته تثقل خطاه لكن دافع الانتقام ومحاولة مساعدة الثورة حتى لا يحدث لغيره ما حدث له جعلاه يتقدم نحو الخروج من المشهد.

بالفعل ابتعد وهو ينظر خلفه صوبها وحزم أمره على الهرب وقلبه معلق هناك. ركب حصانه ثم ذهب والحزن يأكل قلبه.

الفصل التاسع

قد لا تمنحك الحياة كل ما تتمنى. قد تنجب لك من رحم السعادة حزنًا لا تدري كيف وهل هو من صُلبك أم هو عبث الحاقدين؟ أحقاد بشاي توغلت في الشر داخل حياة أخيه السعيدة. شهواته عصفت بتلك العائلة وكانت سببًا في موت اثنين وحرق حياة الثالث.

من حمرة الابتسامة تحول وجه بخاتي إلى كمد، ومن حب الناس ومساعدة المحتاج تحول إلى وحش بلا عقل يسعى خلف الغضب. كل ما احتواه قلبه هو حقد شديد على من كان السبب فيما حدث ومن ساعده ليصبح واقعًا أسودًا، وكأن الحقد وباء انتقل من جسد لآخر أو ربما كقرين ترك بشاي ليسكن عقل بخاتي.

أيام مرت عليه وهو يهرب من بقعة لأخرى، وبالكاد يجد ما يسد جوعه لو شعر به. يختبئ في الأراضي الموحشة غير مكترث لوحوشها ولا زواحفها فذلك الكائن الهارب ربما يخيف أكثر من مجرد حيوان يسعى خلف سدّ جوع.

تلك الذكريات تمر على عقله طيلة الوقت. مجرد أن تنتهي حتى تبدأ. وقعها لا يختلف في أول مرة عن آخر مرور. كانت كلمات بولخاريا وابتسامتها الأخيرة نصلًا وخز جدار قلبه، يدميه ولا يقتله.

رفع بخاتي وجهه المكدوم ينظر للسماء وعيناه لا تختلفان كثيرًا عن لون الدم، والشمس تختبئ خلف الغيم وربما تهرب من مواجهته. بوهن نهض من مكانه

ثم بدأ ينظر يمينه ويساره قبيل أن يبدأ السير قُدمًا لكنه تجمد في مكانه حينما نظر عن يمينه ليجد سيدة في ثياب بيضاء ساطعة، لم يستطع إمعان النظر فيها من شدة بريقها. خفق قلبه بشدة حينما التفتت صوبه وهي تبتسم قائلة:

– لا تجذع يا عزيز الروح فالجسد يفنى لكن الروح باقية! أنا معكَ حتى لقاء جديد.

لم يهدأ قلبه عن الخفقان فما يراه من الصعب تصديقه. لقد ضرب قلبَه الفرحُ وكأنها عادت له وشعر بالكثير من الراحة وربما السعادة أيضًا. لقد جن عقله فما عاد يفرق بين الواقع والحلم أو ربما الأماني فعلت به ذلك. اقترب منها قائلًا:

– هل رأيتِ حالي؟ لقد فرقونا شذرًا مذرًا وما عاد لي سكن ولا مأوى فلا تتركيـ..

قبل أن يكمل كلمته اختفت بعدما اقترب فبُهِت وشعر بالكمد مرة أخرى. أخذ ينظر حوله يمنى ويسرى بلهفة، وفجأة سمع صوتًا يأتي من خلفه يقول:

– فراق الأجساد قدر لا يسري على الروح يا عزيز القلب فلا تحزن! أنا دومًا هنا.

التفت مسرعًا للخلف فوجدها تجلس على بقعة خالية من الحشائش، تنظر له ونفس الابتسامة لا تفارقها. كانت نظراته لها تحمل من الدهشة والحزن مزيجًا غريبًا لا يوصف بكلمة. وقف مكانه وبدأ يقص عليها تلك الأيام العصيبة التي مرت عليه دونها وهي لا زالت تبتسم في مجلسها، وما أن انتهى حتى نهضت وهي تقول:

– كنت معك دائمًا، لم يفارق طيفي محيطك. الطيور التي تنام على كتفك، الهاتف الذي أيقظك لترى تلك الحية. كنت معك ورأيت كل ذلك وكم تألمت! لا يعود الموتى للحياة لنصافحهم لكن الأرواح تهدهد نفوسهم فلا تجزع!

نظر صوبها وكأنه بدأ يدرك أن ما يراه مجرد طيف وهذيان لكن مع ذلك فهو يشعر بالكثير من الراحة. بدأ يتذكر تلك الأيام حين جلسا سويًا في بيتهما، وكم من حديث تبادلا وكم من مشاعر احتضنت قلبيهما! كم من مشقة عبرت بقوة حبهما وكم من مصاب مرّ وكأنه كابوس عابر!

إنها تحمل من تلك الأرض الكثير. طمع بها الطامعون وحلم بها الحاقدون. فاز بحكمها الطيب واغتصب جسدها حامل الشر. هكذا كانت مصر على مرّ العصور حتى مع العباسيين. أرض الخير والحكمة، وُلد على ترابها أنبياء وحلّ عليها أنبياء. ذكرها أنبياء وأوصى بها أنبياء. إنها أرض مباركة كريمة، لكن نفوس البشر تختلف، وأحقادهم تختلف فمن أراد بها إصلاحًا أبعدوه، ومن ظلم وضرب بها الفساد أبقوه. هكذا شعبها البائس، كلما مرّ عليه حاكم أرهقه ومنع عنه القوت. أرهقه جزية وخراجًا حتى لا يرى الا بيته وطعامه فلا يجد من القوة ما يكفي لرفع راية عصيان أو تغيير.

كان طيفها يسير في الأرض وهو يتابعه والكثير يشغل عقله. كلما نظر إليها تذكر ما كان، وكيف كانت الحياة معها. كم تمنى من بعدها الموت علّه يجتمع بها في حياتهما الأخرى لكنه حمل على قلبه نار الغضب وقرر العصيان والسعي خلف دم لن يجف أبدًا!

تقدم صوبها هذه المرة بهدوء دون أن يتكلم وهي تنظر له بخجل كعادتها، و

قبل أن يقترب منها أكثر اختفت بسرعة. حاول الركض صوبها علّه يتحسس طيفها أو يدرك منها شيئًا لكن لا مجال لذلك. إن عقله البائس لا يعي ما يراه لكنه لن يرفضه بل تمسك به لأنه يشعره بالسعادة. لقد ذهب عقله فأخذ يركض وينياديها بصوت عالي دون ردّ.

وقف مكانه، وفجأة التفت خلفه علّه يراها لكنه لم يكمل دورانه فقد كانت هناك يدا أقرب وأسرع من التفاتته، نزلت على رأسه بقوة فأظلمت عينيه.

*****

– لقد بدأ يستعيد وعيه. أخبر عثمان حتى يأتي!

كان بخاتي ممددًا على الأرض مكبل اليدين والقدمين بإحكام وقد بدأ يستعيد وعيه فحينما كان يركض خلف طيف بولخاريا كان هناك من يتبعه وباغته من الخلف بضربة على رأسه أفقدته الوعي وسقط من بعدها في عالم مظلم. بصعوبة حاول الحركة لكنه لم يستطع ذلك. بدأ يشعر بتلك القيود التي أحكمت وثاقه وهو يحاول الإفلات منها ثم بدأ يتحدث في صعوبة وهو يقول:

– من أنتم؟ أين أنا؟

اقترب منه أحد الرجال ثم انحنى وهو يتحدث إليه قائلًا:

– لا تتحدث أيها الجندي! وفر طاقتك لأنك ستحتاجها بعد قليل.

لم يسمع بخاتي تلك الكلمات وحاول بوهن التحرك مرة أخرى وأخذ يتمتم قائلًا:

– بولخاريا، بولخاريا.

كان وقع ذلك الاسم على من كان يتابع بخاتي صادمًا، وقبل أن ينطق أتاه صوت هادئ من خلفه يقول:

– هذا الرجل ليس عباسيًا ولا يخدم العباسيين. إنه قبطي.

التفت صوب الصوت ليجد رجلًا طويلًا مهندم الثياب، على رأسه عمامة بيضاء ومن تحتها بدا الشيب يزين رأسه كما لحيته. ابتعد ذلك الشخص عن

طريق صاحب الصوت الذي وقف يتفحص بخاتي بهدوء ثم قال:

– هناك أمر عجيب خلف تلك الثياب. كيف لقبطي أن يرتدي ثياب جند العباسيين؟ وما الذي أصابه ليصبح على تلك الحالة؟ أحضر الماء وبعض الطعام.

نظر لشخص آخر قد تبع صاحب الصوت الهادئ واستطرد:

– فك وثاقه وأجلسه!

نفذ الأمر واقترب من بخاتي في حين ذهب الآخر في إحضار الزاد. بدأ بفك وثاقه وما أن انتهى حتى دفعه بخاتي دفعة خفيفة من شدة تعبه لكنه سقط أرضًا من تلك الدفعة المفاجأة. تبعتها محاولة بخاتي النهوض وهو يصرخ:

– من أنتم؟ أيها العرب الغاصبون، لعنة الرب عليكم.

قبل أن يكمل بخاتي، استل صاحب الصوت الهادئ سيفه ووضعه على رقبته فاستقر مكانه وبدأ ينظر إلى صاحب الصوت الهادئ بتحدي ثم قال:

– هل تظن أن نصلك هذا يخيف ميتًا؟ اضرب ولا تنتظر!

نظر إليه الرجل وابتسم ثم قال:

– أنا عثمان من أهل مصر. أهلي من أهلها، وأنتَ من أهلها فأهدأ لنتحدث! لن يمسَّك منّا أي سوء.

تعجب بخاتي من كلمات عثمان ثم رجع خطوة إلى الخلف وهو ينظر له ولمن حوله من رجال، هرعوا حينما بدأ بالصراخ. حاول فهم الموقف. رجال

يحملون الأسلحة، عرب مسلمون ومن أهل مصر. هذا يعني أنهم ليسوا من أتباع العباسيين لكنهم يحملون أسلحة وهذا ما يثير الريبة لكن عثمان هذا أمره عجيب.

أخذ بخاتي ينظر محاولًا فهم الموقف. يبدو على الرجل الوقار، ثيابه وهيئته وكلامه الهادئ لكن هناك شيء عجيب لا يفهمه. بقي الأمر مجهولًا. من هؤلاء؟

أنزل عثمان سيفه وأمر الرجال بالابتعاد وأن يتركوا بخاتي ليتحدث معه قليلًا ثم عاد لينظر صوب بخاتي الذي بدا مستكينًا يفكر. ظهر ذلك جليًا على ملامحه. تقدم صوبه حتى أصبح في مواجهته تمامًا فرفع يده ليضعها على كتف بخاتي وسأله:

– ما اسمكَ؟

لم يتحرك بخاتي قيد أنملة ولم يهتز جسده. كان غارقًا بالتفكير لكنه يعي ما يحدث. ربما كانت الراحة أو الاطمئنان ولا يدري لِمَ! ربما استراحت نفسه لذلك الشيخ. ربما يحاول فهم الموقف فلا مجال للعنف أو المجادلات الآن. هناك ما يجب أن يعرفه.

نظر صوبه وردّ قائلًا:

– بخاتي.

ابتسم الشيخ عثمان وجذبه برفق من يده ليجلسه فجلس معه ثم نظر لثيابه وسأله:

– لماذا يرتدي قبطي زيّ جند العباسيين؟ ولماذا حالتك تبدو هكذا؟

شعر بخاتي بالريبة من سؤاله فاعتدل وحاول النهوض لكنه لم يستطع. هناك ألم شديد في ظهره. لاحظ عثمان ذلك فنهض من مجلسه والتف خلف بخاتي فوجد بعض الدم يسيل على ملابسه من أسفل كتفه فطلب منه الهدوء ليفحص ذلك. من شدة التعب استكان بخاتي لطلبه وتركه ينزع عنه سترته. ما أن نظر الشيخ أسفلها حتى صُدم. لقد كان هناك جرحًا غائرًا متقرحًا، ينزف منه الدم والقيح. تعجب كيف لهذا القبطي أن يتحمل ذلك وكان مستكينًا قبل قليل فالجرح قديم.

أشار لأحد الرجال وطلب منه أن يحضر خُرج حصانه بسرعة فحضر الرجل حاملًا

الخُرج ثم طلب منه إحضار بعض الماء الساخن من القدر فأحضره.

سأل بخاتي:

– كيف تتحمل هذه الجروح؟ هذا الجرح متقيح للغاية وهناك البعض الآخر في ظهرك. يبدو أنكَ تعرضت للتعذيب على يد أحد ولن أستبعد العباسيين فهذه أفعالهم.

لم يجِبهُ من فرط الألم فطلب منه الشيخ أن يهدأ ويكمل تحمله. أخرج خرقة من الخُرج ووضع عليها ماءً دافئًا وبدأ يمسح بها الدم والقيح برفق، ينظفها مرة تلو الأخرى بالماء الساخن حتى طهر موضع ذلك الجرح فأخرج من خُرجه لفافة بها بعض أوراق التوت، وتبعها حُق به معجون يشبه دهن الحوت في شكله وقوامه لكنه معمول من أوراق الرجلة والصفصاف، معجونة بعصارة

الزعفران وزهرة الحلوة المرة وقليل من زلال البيض والأفيون لتسكين مواضع الألم، مسحوق بقليل من ماء دافئ وعرق البلح.

بدأ بدهن موضع التقيح برفق حيث لم يتحرك بخاتي وبدأ يستكين أكثر، وما إن انتهى الشيخ من دهن الجرح حتى أعاد الكرة مع جروح صغيرة في ظهره، ثم وضع وريقات التوت عليها ولفّ خرقة من كتان على ظهره ثم أمر أحد رجاله بإحضار ثوب نظيف له فتعجب من طلبه وسأله:

– هل سيرتدي قبطي نفس لباسنا؟

أعاد عليه الشيخ الطلب وهو ينظر له بغضب فهرع الرجل يلبي مطلبه. ما أن عاد وقبل أن يهم بالانصراف أشار له بمساعدته في وضع الثوب على بخاتي ففعل ثم أعاد بخاتي إلى موضعه ليستند على صخرة ونظر صوب الرجل وقال له:

– هذا الرجل من أهل مصر، وإن كان من أهل الذمة فهو من القبط، وقد أوصى بهم رسولنا خيرًا، وغير ذلك فهو بحاجة للرعاية ولن نتركه هكذا. سنرعاه ونسأله إن أراد أن يصحبنا بعد أن نعرف قصته أو يذهب.

أومأ الرجل برأسه وقد فهم كلام الشيخ بعدما بُهت من رده لكن الشيخ استوقفه قبل أن يغادر قائلًا:

– لن نسيئ للدين وتعاليمه فما بيننا وبين الخالق لا يميزه ثوب ولا وشم. ربما كان الرجل أفضل من أحدنا عند الله.

كان بخاتي على الرغم من ألمه يستمع لما يقول الشيخ لكنه لم يبد أي انتباه وما هي إلا لحظات حتى شعر بهدوء موضع الجرح فأعتدل في مجلسه فاستدار

عثمان صوبه وقال له:

– هل أنت بخير؟

لم يجبه بخاتي عن سؤاله واكتفى بالنظر إليه. نهض الشيخ من جوار بخاتي وذهب ليتركه يستريح. في تلك اللحظة رجع عقل بخاتي للتفكير، من هذا؟ من أين أتى؟ وما هي وجهته وغايته؟ كان التفكير يأكل عقله لكن فجأة ظهر طيف بولخاريا وهي تجلس على طرف آخر من الأرض ليعتدل باسمًا مبتهجًا فاقتربت منه دون أن تنظر حولها وقالت له:

– لا تخف! لن يؤذيكَ أحد من هؤلاء فهم على نفس طريقكَ.

اختفت فصاح بخاتي:

– بولخاريا، لا تذهبي! أرجوو..

وسقط مغشيًا عليه.

الفصل العاشر

عامرة تلك الأرض من بعد الطوفان. الأرض المباركة التي حباها الله وجعل منها مسكنا لذرية من بني نوح الرسول. عمرها الشداد، ورفعوا فيها العماد. أحاطوها بالزرع والبناء وحفروا فيها مجاري الماء فكانت مطمع الطامعين، ومقصد الراغبين. عون المحتاج وسراج الشرق الوهاج. كم من جائر اغتصبها فعصفت به روحها الخالدة! فإن تقلب التراب واختلط بالدم خرج من جوفها نبات الشوك الذي يقطع دابر الغاصبين الأوغاد.

لقد انقلبت الأرض بظلم العباسيّ وسالت دماء القبط والمسلمين، وأنبتت الأرض زرع ثورتها في أرض البشمور. ثارت الأرض بمن عليها فرفضوا دفع جزيتهم وطردوا عمال الدولة ومن بعدها انقلبت الأرض إلى كرّ وفرّ فوصل الخبر الى مسامع المأمون الذي لم يسأل عن أسبابها فأرسل لهم جيشا كبيرا متجها صوب مصر، وما أن وصل منبت الثورة حتى عرف صعوبة مهمته.

كانت الأرض الموحلة وعرة التضاريس، لا يعرف مداخلها ومخارجها غير من سكنها وداس بقدميه طريقها. حاول قائده كثيرًا وكثيرًا خوض مناورات ربما تنجح في العبور لبشمور لكنه فشل مرة تلو مرة حتى يأتي الليل فيخرج عليه البشموريون فيقتلون من جيش الأفشين الكثير ويسلبون عتادهم مما جعل الأمر يصبح أكثر عنفًا من الأفشين وجيشه لكن دون ثمار.

متثاقلة عينا بخاتي من كثرة التعب فما مرّ به ليس بهين لكنه حاول جاهدًا التغلب على وهنه ورفع رأسه ليجد أشخاصًا جلسوا على مقربة من كتلة من

نار مشتعلة قد أعدوها لتحضير بعض الطعام. تحرك بهدوء فأعتدل في جلسته قبل أن تقع عيناه على الشيخ الجالس وسط رجاله يتحدث إليهم. سمعه يقص عليهم خبر بشمور ورجال المأمون، وكيف لقلة من القبط دحر جيش مسلح يفوقهم عدة.

كان حديثه يظهر الكثير من المدح في حق البشموريين وبينما الشيخ يقص على فتيانه ما يقص، انتبه بخاتي لأمر، كيف لرجل مسلم أن يتحدث هكذا عن قبط يحاربون رجالًا مسلمين؟

أكمل عثمان حديثه عن هجمات الأفشين ودحرها من قبل أهل بشمور. رجال يمتهنون الصيد وينشغلون بأوراق البردي، كيف لهم هزيمة جيش بعتاد؟ وطبيعة تلك الأرض المحصنة التي تبتلع كل غريب عنها. قص عليهم من نبأ ثورتهم الأولى وكيف أن مينا بن بقيرة جمع البشموريين تحت راية العباسيين أول الأمر في ثورتهم ودحرهم للأمويين، بعدما استعان بهم العباسيون لشدة بأسهم وصلابتهم. اليوم انقلب الحال ليقف البشموريون في مواجهة حلفاء الأمس.

لم يجد بخاتي لسؤاله جوابًا شافيًا وغرق في أفكاره بينما هم في حديثهم حينما نظر عثمان صوب موقعه فوجده جالسًا باعتدال ينظر صوبهم. نهض قاصدًا بخاتي بينما الرجال يتابعون انصرافه. لم ينتبه بخاتي لقدومه في حين وقف عثمان أمامه مباشرة فانتبه أنه غارق في فكره. جلس على مقربة منه ولم يتحدث واكتفى بالنظر لبضع لحظات.

سرعان ما انتبه أن ذلك الضيف لم يتناول شيئًا حتى الآن فأشار لرجاله لإحضار بعض الخبز وبعض ثمار الأترجة الناضجة. ما أن حضر الطعام حتى أخذه من يد الرجل ووضعه أمام بخاتي الذي انتبه في تلك اللحظة لوجودهم

فأعتدل في مجلسه حينما شعر بقليل من الوخز أسفل ظهره لكنه كان ألمًا ضعيفًا.

قال له الشيخ:

– لم تأكل منذ الصباح. عليكَ أن تأكل حتى تستطيع المقاومة فجراحكَ تحتاج ذلك.

فنظر له بخاتي نظرة تحمل من التساؤلات ما يكفي لاشتعال رأس عاقل. الكثير حول ذلك الرجل لا يفهمه. فجأة نهض عثمان من مجلسه ليتركه يتناول طعامه فأمسك بخاتي يده فجأة وطلب منه بأدب أن يجلس. هنالك ابتسم عثمان في وجهه ولبّى طلبه وجلس.

وضع بخاتي الطعام أمامه وبدأ في تلاوة صلواته وختمها بالتصليب، وما أن انتهى حتى بدأ بتناول طعامه. كان عثمان ينظر إليه بصمت فيبادله تلك النظرة لكنها تحولت فجأة لابتسامة خفيفة حينما التقط الشيخ كسرة خبز وقال:

– بسم الله الرحمن الرحيم.

بدأ بأكلها فكانت تلك المحاولة الثانية من عثمان لكسر ريبة الضيف، فحينما همّ بالانصراف كان اختبارًا لبخاتي، هل سيتركه يرحل أم أن هناك شيئًا يجول بخاطرة ويود مشاركة ذلك العثمان؟ والآن يكسر حاجزًا آخر بتناوله الطعام مع قبطي فأصاب هدفه ونجح في ذلك حينما ظهرت على بخاتي ابتسامة ودودة، ربما هي خطوة في رحلة تعارف.
تابع رجال عثمان ذلك المشهد من بعيد وعلى مُحياهم الكثير من العجب،

والصمت بين الجليسين لا يزال يتسيد الموقف، احترامًا للطعام ربما أو أن أحدهما ينتظر الآخر لالتقاط طرف الحديث. حين انتهى الشيخ من طعامه، نظر إلى السماء فحمد ربه على نعمة الطعام ومن بعدها صوب بخاتي وقال له:

– أكمل طعامكَ يا بخاتي! سأذهب للصلاة وأعود.

أومأ بخاتي برأسه متفهما وأعطاه الرخصة لكنه تابع انصرافه حتى وصل لتجمع رجاله الذين وقفوا عند عودته بعدما طلب منهم الوضوء للصلاة. بعدما أنهوا الوضوء تقدم أحدهم وأذن فيهم بالصلاة حينما التفت عثمان صوب بخاتي الذي كان ولا زال يتابعه وينظر صوبه. بعد انتهاء المؤذن اتخذ الشيخ مكانه كي يؤم الجمع وبدأ بتلاوة القرآن بصوت عذب، والضيف يتابع صلاتهم. قبل أن ينتهي الشيخ من الصلاة، نهض بخاتي فجأة من مكانه بسرعة وركض صوبهم وما أن اقترب حتى لمح سيف الشيخ على مقربة من الطعام فأستله من غمده وضرب ضربة واحدة ليسيل الدم.

*****

على الرغم من الليل وسواد البقعة إلا من ضوء خافت منبعث من بعض الحطب المشتعل إلا أن الأرض العطشى تلونت بصبغة الدم القاني الذي أغرقها. مع ذلك المشهد كان بخاتي واقفًا مكانه دون حركة ولا يزال النصل في يمناه تتساقط عن سطحه قطرات دم بسيطة بينما الجمع كانوا في سجود لم ينهوا صلاتهم حتى ذلك الحين.

صوت الصمت يزعج الليل يخلله صوت جسد ينتفض على الأرض، وما هي إلا لحظات حتى أنهى الشيخ ورجاله صلاتهم لينظروا خلفهم فوجدوا بخاتي يقف منتصب الجسد والنصل في يده. فزع عثمان من مكانه وتبعه الرجال صوب بخاتي ليجدو جثة شخص ممددة على الأرض. أسرع أحدهم في جلب فرع حطب مشتعل ليضيء المكان ليكشفوا عن هوية صاحب الجسد ففزعوا. لقد كان جسدًا بلا رأس وبخاتي لا يزال ينظر صوب الجسد الذي هدأ وتوقف عن الحركة وقد خرجت روحه.

اقترب عثمان منه فأمسك السيف من يده وبهدوء تركه بخاتي يأخذ نصله دون حركة لكن في تلك اللحظة أتى صوت أحد الرجال يقول:

– عثمان، أنظر هنا!

هرع عثمان لينظر صوب البقعة المشار لها وما أن وصل حتى تجمد مكانه قبل أن يقول:

– لقد اقتفى أثرنا حتى وصل هنا.

ثم عاد بنظره صوب بخاتي واستطرد:

– جاء ليقتلني.

اقترب بخاتي من عثمان ونظر صوب الرأس دون أن يتكلم. وضع عثمان يده على كتف بخاتي وقال له:

– تحمل السيف كأنكَ محارب. لم تهتز مع القتل فهذا دليل دامغ على أنها ليست الأولى لكن ما أسعى لفهمه هو كيف صرعته هكذا؟

لم ينظر له بخاتي واستمر ينظره صوب الرأس وبركة الدماء وقال بغضب:

– الغدر، الخيانة. هذه الأرض ترتوي بدمائهم ولا تتطهر لكنها تنبت من ذلك الدنس مغتصبون.

تعجب الشيخ مما قال، وزاد عجبه حينما تركه بخاتي بهدوء وكأن شيئًا لم يكن ليذهب حيث كان يجلس فاكتفى بمتابعة بخاتي وهو يسير وعقله منهك من التفكير. لم يكن التفكير بما حدث وأنه كان على أعتاب الموت لولا رحمة الله وعنايته لكن عصف بعقله سؤال واحد، ما قصة بخاتي هذا؟

أما بخاتي فقد عاد عقله لنكباته التي أصابت حياته في صميمها حتى قطعت شريان الأمل. نزف الكثير من بهجته حتى بات جسدًا يتحرك بدافع الغضب لا أكثر. جلس حيثما كان وكأنه لم يقتل حشرة. فرد كفّه اليمنى أمامه، ينظر فيها في ذلك الظلام. لم يكن يتفحص آثار الدم أو هيئة كفّه لكنه كان يتحدث معها بصمت ولسان حاله يقول:

«هل اعتدتِ القتل؟ قدمت الكثير من الخير وأنبتتِ الزرع، والآن تحصدين الدم؟!»

كان عثمان لا يزال يتابعه وقرر أخيرًا الذهاب إليه. ربما تلك لحظة مناسبة لفضّ بكارة الأسرار. اقترب منه بينما بخاتي لا يزال غارقًا في حديثه الخاص

مع كفه ومع ذلك جلس بجواره دون أن يتحدث وأكمل النظر إليه وإلى كفّه المفرودة لكن بخاتي تحدث فجأة:

– كنت أتابع صلاتكم وأنظر صوبك تحديدًا، لن أخفيك سرًا الآن (نظر لعثمان مباشرة وأضاف) منذ الوهلة الأولى وهناك الكثير من التساؤلات تفتك بعقلي حولك. من أنتَ؟ لِمَ تساعدني؟ أنا قبطي يرتدي ملابس جند العباسي وعلى جسدي الكثير من الندوب. لم تُلح في السؤال من بعد (ما اسمك يا قبطي؟). لم أسألك حتى الآن ولكن..

قاطعه عثمان يقول:

– لقد أنقذت حياتي. الآن اهتديت لإشارة الله حينما رأيتك في الأحراش، كان ذلك سببًا لما حدث الآن. زاد حزني على تلك الروح التي أزُهِقت منذ لحظات لكن الغضب ما دفعها نحو حتفها.

لم يعقب بخاتي على ما قاله ونظر صوب الرجال. هناك أشار عثمان لأحدهم وقال:

– احفروا في الأرض مكانًا وضعوا جثته واردموها. لو شمّ وحوش الأرض رائحتها لخرجوًا علينا من كل اتجاه.

استجاب له رجاله فعاد لينظر صوب بخاتي وقال:

– نحن من كورة أَنْصِنا صعيد مصر ونقول عنها أنصله. مدينة سحرة فرعون التي جمع منها السحرة لمبارزة نبي الله موسى فغلبهم، وكانت أكبر جماعة من القبط قد آمنت بنبي في ساعة واحدة. أنا شيخ التجار ومن عليتها، تجارتي كانت تجوب ربوع مصر وكنت أذهب إلى أتريب لأجلب البضاعة القادمة من

خارج البلاد عبر الفرما. كان يعمل معي كثير من أهل الكورة ومنهم هؤلاء المخلصين أتباعي في تلك الرحلة. في أحد الأيام استصرخني أحد رجالي وكان من القبط بعدما عجز عن دفع جزيته للعباسيين، وقد ذهبوا إلى داره وعزموا على سبي ابنته الكبرى مقابل الجزية. فزعت إليه وحين وصلت داره وجدت كبيرهم يهم بالفتاة أمام الناس فاشتعل غضبي. هجمت عليه لأبعده عنها حينما أسرع رجاله نحوي ليمنعوني. أتيت به من دبر نحوي فاستدار وفي تلك اللحظة أشهر رجل منهم نصله وأنا أدفعه بعيدًا فأنغرز النصل في صدره ومات.

اعتدل بخاتي في جلسته بعد ما سمع. ذلك الشيخ الحكيم الوقور قد قتل؟ حتى ولو كان قتلًا غير مقصود، لم يكن ليتخيل قط تلك النقطة. نظر له بينما استطرد في قوله:

– تجمع رجالي حول رجال العباسي ليدفعوهم عني وتبادلوا العراك. حاولت نهيهم عن ذلك لكن كان الأمر أسرع مما تظن. جذبني ثلاثة منهم بعيدًا عن المكان نحو بيتي وأنا أمنعهم، وفي النهاية هرب الجند وتجمع رجالي نحوي لينظروا ما قد حل بي فطمأنتهم ثم تركنا المكان. بينما نحن في دار أحدهم، هرع إليّ أحدهم يصرخ بأن الناس قد اجتمعوا في السوق حول موظفي الدولة والجند بعدما أجمعوا على قتلي وطرد رجالي من الكورة. هرعت صوب السوق لأجد تجارتي وقد أحرقوها ونكلوا ببعض رجالي فجذبني رجل منهم وطلب مني جمع ما أستطع وترك البلدة. رفضت ذلك لكنه قال: «إن الأمر لن ينتهي إلا بقتلك ونحن لن نتركهم. دعنا نذهب من هنا». أصغيت له وعزمت على الرحيل ومن معي ببعض من مالي وزادنا عبر الفلايك إلى وجهة مجهولة حتى وصل مسامعنا أمر الأرض الغاضبة. عزمت على الوصول إلى

أرض البشمور لدعمهم ضد العباسي الذي حرق مالي وجعلني طريدًا فأبحرنا حتى وصلنا هنا أمس.

نظر صوب رجاله وهم يحفرون لدفن الجثة وقال:

– أما ذلك الذي قتلتَه فهو ابن الرجل الذي مات على يديّ دون قصد. من الواضح أنه تبعنا حتى هنا، وحينما ذهبنا للصلاة انتظر حتى لحظة السجود ليجهز عليّ لكن الله أراد لي النجاة وأرسلك لتدفع عني السوء. اليوم صرت مدينًا لكَ بحياتي يا بخاتي.

نظر إليه دون أن ينطق. كلاهما تقاطعت طرقاتهما عند الظلم. حرق روحهما استبداد الحاكم، فقدا أعز ما يملكان وأمسى كل منهما شريدًا طريدًا فريسة هائمًا على وجهه في الأحراش، وظلم الحاكم يزداد جوعًا كلما التهم قوت فريسة وأحنى باقي القطيع رؤوسهم خوفًا، ينتظرون نوبة جوع قادم لتأكل منهم البعض فهذه ضريبة أخرى أشد وقعًا من جزية وخراج، إنها الروح مقابل الصمت والإذلال.

نهض بخاتي بعد صمت جعل من المكان كالقبور فتبعه عثمان بهدوء، وما أن وقف خلف بخاتي حتى وضع يده على كتفه وقال:

– لم تتقاطع طرقنا هكذا كغرباء، خاصة ما شعرت به حينما رأيتك وتأكدت من تلك الرسالة حينما أنقذت حياتي. لقد كانت مشيئة الله خلف هذا اللقاء لكن أود أن أعلم خبرك، ما كنت وكيف أمسيت هنا؟

التفّ بخاتي وانتصب أمامه بغضب وأجاب:

– لقد قتل أخي وأولئك المسلمون عائلتي، وأنا هنا في طريقي لأنتقم. كانت

تلك الجملة صاعقة ارتجف لها قلب عثمان وفاته ما كانت عليه عينا بخاتي من غضب، عينان سكنهما الشيطان

الفصل الحادي عشر

استبسل أهل البشمور في مواجهة العباسيين بعدما أمر الخليفة المأمون قائده الأفشين التركي بالهجوم عليهم وردع تلك الثورة قبل انتشارها فكان ذلك ليلة عاشوراء، التاسع من محرم لكنه لم يفلح بجيشه وعتاده تجاوز الأرض الموحلة. مع كل يوم كان إصرار البشموريين يزيد، ويزحف لهم من كل صوب مدد سواء كان من القبط أو المسلمين أو العربان.

استمر الكرّ والفرّ بين الطرفين والغلبة للبشموريين حتى كانت اللحظة التي تغلبوا فيها على الأفشين ذاته فقالوا إنه قُتِل لكن نفى البعض منهم ذلك وقالوا إنه قد فرّ هاربًا على عودة بعد وصول المدد لكنها لم تهدأ عند العباسيين فعمد إليهم الخليفة المأمون على رأس جيش كبير واصطحب معه الأنبا ديونسيوس بطريرك أنطاكيا في فتلك الثورة.

لم تكن قط ثورة طائفية ضد الإسلام لكنها كانت ثورة شعب أرهقه الجوع والذلة، وأهلكته الجزية والخراج. لم يسمع الحاكم صوت أبناء شعبه حينما استغاثوا لكنه سمع صوتهم حينما رفعوا راية العصيان. ربما تناسى أن كل راعٍ مسئول عن رعيته!

تبادل رجال عثمان الحديث عن خبر الثورة أما بخاتي والشيخ ففي مكانهما وسط الغضب والدهشة. كانت تلك الجملة تحمل ريحًا عاتية ساخنة لفحت وجه عثمان الذي اقشعر بدنه حينها. وقف منتبها ينتظر ما يعقبها من قول بخاتي الذي قال بحزم:

– قدم العباسيون البلاد طامعين. ساعدهم مينا بن بكيرة وجماعة بشمور في دحر الأمويين فأحسنوا حينها معاملتهم وخفّفوا عنهم بعض الجزية لكن ظل الطمع بالبلاد وخيرها شهوة عندهم. طبيعة المغتصب تتشابه تمامًا كطبيعة بشاي ابن أمي الذي أحرقته بيدي بعدما اغتصب سكني، زوجتي بولخاريا.

عاد عثمان للخلف خطوتين من بعد ما سمع فما قاله بخاتي هول تشيب له منابت شعر الصغار. كان يعلم أن ذلك القبطي يُخفي خلف صدره أمرًا جللًا، وأن تلك القوة والغضب في حديثه كانتا لسبب ما، حتى سمع ذلك فأصبح على يقين بأن ذلك القبطي خلفه بركان غاضب يلفح بنيرانه ويقتل دون تفكير.

استطرد بخاتي في قوله دون أن ينظر للشيخ:

– هناك في الماضي ذنب اقترفته فعاقبني الرب، لكن أي ذنب؟! منذ خروجي من بلبيس وأنا أبحث دون جدوى. سأقص عليكَ من أمري لعلك ترى فيه ما لم أرَه.

أومأ عثمان برأسه متفهمًا ولا يزال هول ما سمع يسيطر عليه.

بدأ بخاتي بسرد بعض من خبره. بدأ بعلاقته مع أخيه منذ صغرهما، مرورًا بوفاة والده الذي أنصف بخاتي على أخيه فزاد بها كره بشاي وحقده، وعن وفاة والدته التي ماتت قهرًا بسبب أفعال بشاي وطمث العلمانية التي كان غارقًا فيها بين المواخير والراقصات.

حينما بدأ بسرد قصة بولخاريا، بدأ صوته يتحشرج وكأن الألم ضغط على روحه ليعتصرها حدّ الموت. لاحظ الشيخ ذلك فأمسك بكتفي بخاتي وأشار

له بالجلوس ففعل. كانت محاولة منه لفك ضغط الألم على روحه ولم يكن يعلم أن الألم قد امتزج بتلك الروح ولا سبيل لتهدئته إلا بخروجه مع الروح.

أكمل بخاتي ذكر روايته وكلما خرج من جملة تثاقلت التي تليها وكأنها تحمل صخرة على عاتقها. فجأة توقف عن السرد وصرخ بقوة نهض على أثرها رجال عثمان:

– كان يجب أن أصغي إليها أو أموت أنا لا هما. إنها لعنة الرب.

وقف الرجال وتجمعت أنظارهم صوب بخاتي الذي بدت عليه علامات الثورة بعدما نهض من مجلسه وبدأ بالنظر عاليا وهو يلطم بكفه على صدره مكررًا «إنها لعنة الرب» دموعه تنهمر بشدة.

نهض الشيخ من بعده واقترب منه دون أن يمسّه تلك المرة. سمح له بتخفيف حمل يحمله على صدره بالصراخ والبكاء قبل أن يعود بنظره صوب الشيخ ويستطرد بغضب:

– أخي طمع بزوجتي والمسلمون طمعوا في أرضي، وكلاهما شريك فيما حدث. الأول قتل زوجتي والطرف الثاني قتل طفلًا لم أسمع سوى بكاءه. قل لي أنتَ أيها الشيخ المسلم، أين دينكم وربكم مما حدث لي؟

تقدم عثمان منه وانتظر حتى ماعت نفسه وأفرغ ما في جوفه من غضب حتى يستطيع أن يتحدث معه علّه يقومه. ما أن نظر صوب بخاتي حتى قال له:

– ما نحن؟

لم يفهم بخاتي سؤاله ولم يسأله عن تفسير فسرعان ما أردف عثمان:

– مجرد بشر. نخطئ ونرتكب المعاصي، وعلى اختلاف ملتنا نظل بشرًا. تلك الأفعال تسيء للدين ولكنها لا تمثله فالدين وضعه الخالق الذي لا يخطئ، وثواب وعقاب البشر عنده فلا تظلم الاسلام بفعل من قال أنا مسلم ولم يطبق تعاليمه.

لم تجد تلك الكلمات صداها لدى بخاتي الذي تقدم صوب الشيخ وقال:

– منذ قدوم عمرو بن العاص لهذه البلاد يا شيخ تباينت الأفعال. رحب بقدومه القبط

فأكرمهم لكنه كما ذكرت بشر فطمع. ربما لم يخفَ عنا طمعه بالبلاد ورغبته في حكمها وحده فأحسن لأهلها وسقط أحيانًا فلم ننسَ القبطي الذي ضرب عنقه بعدما أخفى عليه كنزه ليكون عبرة لغيره منا. تلك أفعال البشر لكنه أساء له حينما علل فعله بالدين أيضًا، ومن بعده جاء من سقى هذه الأرض وأهلها الأمرين وأيضًا كان بالدين، هل نسيت؟

وضع عثمان يده على كتف بخاتي وقال:

– هذا ما حاولت قوله. كلهم بشر وكانت لهم أخطاء، والدين بعيد عن كل ذلك يا..

قاطعه بخاتي بعدما نهر يده الشيخ المعلقة على كتفه صارخًا:

– دينكم فرض علينا جزية وخراجًا، وجعل منا طوائف تهيم متباعدة. دينكم جعل من أهل الذمة أعداء للمسلمين. أصبحنا نُلَّقب بالدين، وحينما أراكم تتحدثوا عن أهل بشمور أتعجب. كيف لمسلم أن يتحدث بالحق في أمر أقبا..

قاطعه عثمان بحدة قائلًا:

– قال الله تعالى في كتابه:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[2].

تلك الآية الوحيدة في القرآن التي أمرت بإعطاء الجزية من قبل الكافرين بالله وكتبه ودين الحق الاسلام، وخص أهل الكتاب بالذكر إكرامًا لكتابهم ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، خصوصًا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملته وأمته فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظم جرمهم، وأمر الله «قاتلوا في سبيل الله» هو منع الفتنة في الدين، فالمقصد التشريعي من القتال في سبيل الله يا بخاتي أن تختفي الفتنة، وجعل مرجعنا إليه يوم القيامة ليحاسبنا جميعًا على أعمالنا.

تقدم أكثر صوب بخاتي الذي لم يهدأ بعد ما قاله الشيخ لكنه احترمه ووقره فلم يقاطعه حينما استطرد الشيخ بهدوء:

– الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، لكنكم جهلتم قوله تعالى ولن أعمل على تغيير اعتقادك الآن فلنا ديننا ولكم دين. نحن هنا كمصريين وقع عليهم ظلم حاكم. أنا هنا لأبرأ الدين من أفعال الناس، من أفعال الحاكم الغاصب.

بهت بخاتي بعد ما سمع. كان هدوء عثمان وثباته عجيبًا فقد دافع عن دينه ولم

٢- سورة التوبة الآية ٢٩

يتعصب. هنا ردّ عليه قائلًا:

– كيف تتحدث بكل تلك الراحة؟ و كيف تتحدث أنت ورجالك عن أقباط بشمور ومساعدتهم كأنك منهم. أنتَ لست منهم و..

نظر إليه عثمان ووضع عينيه في عيني بخاتي مباشرة وقال:

– دعني أجيبك! حديثك عن أهل البشمور وظنك خاطئ أيضًا. نحن هنا تحت ظل وطن واحد ولا ننكر أنهم أهل تلك البلاد يا بخاتي. نعم، نتحدث عنهم لأنهم شجعان بلا عدة وعتاد. وقفوا في وجه ظلم ولاة غلبهم الطمع، وما خفي عنك يا هذا أن تلك الثورة الآن ثورةً ضد حاكم فاسد لا ضد الدين. لقد دعم أهل بشمور الكثير من أهل مصر. ليس أقباطًا فقط بل كثرة منهم مسلمين وعربانا. إنها ليست ثورة طائفية ضد دين لكنها ثورة شعب يموت قهرًا.

التفت عثمان بكامل جسده صوب رجاله وتحرك بضع خطوات لينظر إليهم ويقول مكملًا حديثه لبخاتي:

– لقد أجمعت أنا ورجالي على الذهاب لمساعدة البشموريين بما نملك، وهنا نحن مسلمون نساعد أقباطًا فهل يخرجنا ذلك عن ملّة الاسلام؟ كلا يا بخاتي فالدين لله، والوطن للجميع، ولا صوت يعلو فوق كلمة الحق.

تقدم رجاله نحوه بإجلال بعد ما قال. انهم ليسوا جنود حرب ولكنهم رجال تقاسموا خير هذا الشيخ وله عند كل رجل منهم ما يجعله يقدّم رقبته في سبيل عونه وحمايته. كان لهم أبًا وناصحًا، حكيما في قوله، رشيدًا في فعله. ذلك ما لمسه بخاتي من ذلك الرجل.

تحرك بخاتي خلف الشيخ ولكن قبل أن يخطو خطوته الثانية التفت عثمان صوبه وقال:

– لقد أرسل الله رسله للناس جميعًا ليهديهم إلى سبيله، ومع اختلاف رسله إلا أن المُرسل هو رب كل رسول ورسالته واحدة، أن نعبده ولا نشرك به. هذه رسالة الرسل لخلق الله فلا تكفر بالخالق بفعل مخلوق جاهل فالدين بريء مما فعلت أيديهم يا ابن مصر!

اختلفت مشاعر بخاتي بعد ما سمع، وما جعله يشعر بالرجفة هو صوت الشيخ وهو ينطق آخر كلماته. أكمل بخاتي طريقه صوب الشيخ ووقف على بُعد خطوة واحدة وقال:

– هل تصحبني معكم إلى أرض بشمور؟

نظر عثمان صوبه مباشرة وظهرت على ثغره ابتسامة غريبة، لم يفهم بخاتي فحواها قط.

الفصل الثاني عشر

ولادة يوم جديد من رحم الزمن، انسلخ معه بدن جديد كان لبخاتي. ما أن بزغ النهار حتى استيقظ ليجد الرجال من حوله يجمعون متاعهم. نظر يبحث عن عثمان. نهض من مرقده بلهفة كأنه قد فقد شيئًا أو ربما كان حلمًا كان فيه ذلك العثمان بطل أقصوصة لكن سرعان ما جمع شتات عقله. لم يكن حلمًا وكل ما عايشه كان حقيقيًا.

بينما كانت عيناه تبحثان عن عثمان، راح عقله يبحث في أمر آخر، البشموريين أنفسهم. هم جماعة من الأقباط نالهم من القهر والتنكيل ما نالهم حتى رفضوا دفع جزيتهم وطردوا رجال المتولي والمحتسبين. وقع عليهم ما وقع من ظلم العباسيين ما جعلهم يشعلون فتيل الثورة التي وصل خبرها للخليفة المأمون، وما سمعه كان عكس ما حدث. لقد سمع أنها ثورة على المسلمين أثارها قبط بشمور، ونزغ أحد الشياطين في أذنه أن ذلك من فعل الأمويين لاستعادة ملك مصر وما حولها مما جعل الدائرة تنغلق حول أقباط ومسلمين.

من يبصر الحال ويسمع الخبر على علم بظلم المتولي ورجاله الذي اجتاح الأرض مشرقها ومغربها حتى طال مسلميها قبل قبطها فندر الزرع وجفّ الضرع، في وقت كان النيل لم يصل التبة، فلا سقيًا ولا مرعى. اختلط القهر وانسجم فدعم المسلمون القبط في ثورتهم فكانت ثورة شعب ضد القهر.

ما كان يشغل بال بخاتي كيف لهؤلاء القوم وهم مسلمون أن يذهبوا لأرض

البشمور ويدعمون الأقباط؟ في حين أن الأنبا يوساب يرسل ما بين الحين والآخر رسله للبشمورين، يحثهم على الكفّ عن إثارة القلاقل وأن يطيعوا أولي الأمر. ربما خوفًا عليهم فلا قبل لهم بمواجهة جيوش المأمون في حرب غير متكافئة، وربما لانشغاله بأمور البيعة اليعقوبية في حربها مع الملكانيين وخوفه من عودة البيزنطيين. قطع ذلك التفكير يدٌ وُضعت على كتفه فانتفض جسده والتف بسرعة ليجد عثمان قبالته وهو يبتسم قائلًا:

– لم أقصد اخافتك، أسألك العفو.

ردّ بخاتي عليه بابتسامة كانت الأولى منذ تقاطعت طرقهما فتعجب الشيخ منها، حينما نطق بخاتي قائلًا:

– لا تسألني ذلك! لقد كنت غارقًا بالتفكير وأبحث عنك أيضًا.

تعجب عثمان من بحث بخاتي عنه فسأله عن السبب. اعتدل بكامل جسده ليواجه الرجل وسأله:

– هل ستصحبني معكم إلى بشمور؟

نظر صوبه دون أن يرد السؤال فتعلقت عينا بخاتي به ونظراته ممزوجة ببعض اللهفة مع القليل من الخيبة. هل سيتركه الشيخ ويذهب؟ لكنه سرعان ما نهر ذلك السؤال دون سبب واضح. لم يسد الصمت طويلًا فقد باغته عثمان بسؤال:

– لماذا تود الذهاب؟ دعم أم قصاص؟ أذاهب لتقف مع ذويك في وجه الظالم أم سعيًا خلف دماء عائلتك؟

لو نطق دون تفكير لكان جوابه القصاص دون شك لكنه تنفس الصعداء ثم أخذ يتذكر ما دار بينهما من حديث في عتمة الليل ليجد أن يذهب للأمرين، دافع شخصي من بعد دافع جماعي، لقد حرمته نزوات أخيه وطمع يوسف الحق بالحياة مع أهله لكنه ليس وحده. إنه قطرة في بحر كبير تشابهت قطراته. ذلك الظلم نال منه ومن غيره. كم من بخاتي هتك الظلم عرض حياته ليحمل الحزن داخل رحمه رغمًا عنه؟!

لم يأخذ بخاتي الكثير من الوقت لينطق مجيبًا:

– لقد خرجت من داري من أجل الدم لكن بعدما أعطيتني من خبر ودعم، فضلًا عن عزمكم السعي خلف دحر الظالم، وجدت أن في بلدي الكثير والكثير من بخاتي. لست وحدي ولن نكون النهاية لهذا أنا في طريقي فلا تحرمني صحبتك وحكمتك!

شعر عثمان بكلمات بخاتي تتغلغل داخل روحه. وكأنه يرى بخاتي لأول مرة. ربما شعر أن حوارًا بسيطًا أعاد ذلك الغاضب لبعض عقله أو ربما فرحًا باكتسابه رفيقًا من نوع خاص. لقد استحسن رفقة بخاتي منذ الوهلة الأولى، والآن شعر بتبادل الود فرفع كلتا يديه ليضعهما بقوة على كتفيّ بخاتي ليربت عليهما ويشد من أزره قبل أن يقول:

– لن أتركك هنا فأنا مدين لك بحياتي. لتكن رحلة مباركة يا بني بفضل الله!

ابتسم بخاتي وارتسمت على ملامحه علامات الراحة فقال:

– لتكن مشيئة الرب حاضرة!

في طريق الحياة نواجه الألم، وللألم نوعان تظهر معالمه ما أن تتعايش معه، ألم يؤلم وألم يغير. يتحدد ذلك بعد معايشته وطبيعة الإنسان المصاحب الألم، إن كان الإنسان محاربًا ذو طابع عنيد سيستطيع تحويل فعل ذلك الألم لطريق جديد يتغير معه ويعود للحياة.

مرّ على بخاتي ألم عضال. كانت بولخاريا كل ما يملك، ساعده وقدمه وجزءًا من عقله،

ونبض قلبه. الأرض الخضراء التي عاش لأجلها. منذ تقاطعت طرقهما في عيد البتول لفتته رصانة فعلها وفصاحة لسانها، مداعبة الصغار والاتزان في حضرة الكبار، صغيرة يافعة لها من الحسن ما لن تراه في بشر، ولها من الروح بريق كشعاع لامع يضيء. انبهر بها منذ اللفتة الأولى، وحيث كريم نسبها وطيب أصلها وحسبها، لم يستطع التودد لها لكن الأقدار كانت تخبئ لهما شيئًا آخر حينما وقع أبوها من على ظهر بغلته وكان بخاتي على مقربة منه فالتقطه قبل أن تصطدم رأسه بالأرض ولم يفلته حتى اطمئن عليه. كانت تلك اللفتة الأولى لصاحب الجسد المفتول حسن المنظر.

حينما علم خبره والدها بعد تلك الحادثة حينما سأل قيم البيعة عنه، أعطاه ما سُرّت له دواخله عن طيب أصله وفصله، عن والده وشأنه، وعن الشاب بعينه وكم يلتزم بتعاليم البيعة ويخدمها بكل ما لديه، فزادت عند العجوز مكانته وتابعه بين الحين والحين بالسؤال عنه حتى أنه كان يستقطبه بعض أحيانٍ في أعماله فقد كان والدها عجوزًا ذا شأن، ومن كبار كورة بلبيس فكانت أفعال بخاتي الطيبة شرارة التهب بها وجدان بولخاريا.

لاحظ عثمان شرود بخاتي منذ تحرك الجمع فحاول لفت انتباهه حينما قال:

– نرجوا من الله ألا تمطر اليوم حتى نعبر تلك الأرض ونصل إلى (بوصير)[3]. هل زرت سجن يوسف من قبل؟

نظره بخاتي نظرة مندهشًا. لقد سمع بذلك الاسم مرة لكنه أراد معرفة تلك القصة من هذا الحكيم فأجاب عن سؤاله بدهشة:

– سجن يوسف؟

ابتسم من بعدها عثمان وردّ عليه قائلًا:

– نعم، سجن زويرا. سجن يوسف[4] عليه السلام كما لقبه الفراعنة الأوائل.

حرك بخاتي رأسه يمينًا ويسارًا دلالة على النفي فبدأ عثمان يقصّ عليه من خبر سجن يوسف عليه السلام. بدأ مذ دعا يوسف ربه أن يصرف عنه كيد امرأة العزيز وسيدات مصر بالسجن وإلا يصبو إليها ويقع في شركها الخبيث، وكيف قضى يوسف داخل ذاك السجن مدة قد ذُكر مبلغها سبع سنين، كما نزل عليه الوحي هناك ولا يزال الناس حتى يومنا هذا يقصدون بوصير لزيارة سجن يوسف طلبًا للبركات. يقال إنه من أكثر الأماكن في مصر استجابة للدعاء، وحتى يومنا هذا يذهب الناس في تجمعات في النصف الثاني من جمادى الأولى ليحتفلوا ويحملوا التماثيل والمضاحك ويطلقوا الحكايات والسماجات، ويدفع المقتدر للمحتاج.

نظر له بخاتي وهو يصغي لما يسرده عثمان من خبر ذلك الأثر فقد عرف عنه الشحيح من الذكر وما أن أنهى الشيخ حديثه قال له بخاتي:

٣- ذكر مدينة بوصير، الخطط المقريزية الجزء ١

٤- ذكر سجن يوسف، الخطط المقريزية الجزء ١

– وصلني من خبره قليل القليل، وما سمعته اليوم زاد لهفتي لزيارته. ما أسعدني برفقتك يا عثمان! أشكر الرب على تلك الصحبة.

ابتسم عثمان وتهللت أساريره لثناء شريكه. لم يكن يسعى لاستقطاب قلبه ولكن زرع الله الألفة بينهما منذ حديثهما الأول فشعر عثمان من داخله بطيب معدن ذلك الرجل فرغب في صحبته. أما بخاتي فقد رأى فيه الحكمة والعلم، حاجّه في الدين دون تعصب وجعله يوقن أن الدين لله والوطن للجميع، فكانت تلك أولى فوائد الرحلة.

قطعوا الطريق غربًا صوب الجيزة، متجهين إلى بوصير تحديدًا لكن بلغ بهم التعب مبلغه بعد مسافة ليست قصيرة ما بين الركوب والترجل. أشار لهم عثمان بالوقوف بجوار ربوة خضراء قد حلوا بها ليسقوا الخيل وينالوا قسطًا هينًا من الراحة، ويؤدوا الفريضة وكذلك ليأكلوا الطعام.

ذهب بعض الرجال لإعداد بعض الطعام ليتقاسموه، وبعضهم ذهب ليعدّ خلوة للصلاة، وعثمان ترك بخاتي خلفه. تحرك صوب اليمين ليتخذ من جذع شجرة متكأً له وما أن جلس حتى بدأ بتلاوة صلواته وهو ينظر إلى السماء حتى انتهى فصَلَّب على صدره ثم عاد ليبصر ما يفعله الرجال لكنه وجد شيئًا آخر، لقد وجد بلوخاريا تجلس أمامه مباشرة وعلى وجهها ابتسامة خفيفة. اعتدل في مجلسه وبادلها الابتسامة بفرح. تنفس ببطء قبل أن يقول:

– اشتقت لتلك الابتسامة ولسماع اسمي من فاهك. لم تسعفنا الحياة يا عزيزة الروح أن نكمل الطريق جسدين ولكن روحك التي َتحوم حولي تعطيني بعضًا من الصبر ولكنني لا أتحمله.

لم تنطق واكتفت بالابتسامة والنظر إليه بينما حاول هو كبح سيل دموعه من

أن ينهمر خشية أن تتألم روحها فعاد للابتسامة لكن هذه المرة كانت بطعم مرّ وملامح يملأُها الأسى ثم عاد ليستطرد:

– الكثير من الألم يعتصر كل روحي. لم أستطع تأبينك ولم ألقِ عليك وداعًا أخيرًا. تركت كل ما لنا وهربت. ويح ما فعلت! أنا شريك في ذلك. لعنة الرب تحيطيني والسيد لن ينظر لي ولن تمنحني البتول السلام. لقد قتلتك قبلهم بما فعلت.

لم يستطع كبح سيل الدموع أكثر فانهمرت منه غيثًا وعلا نحيبه فسمعه عثمان الذي لم يكن بعيدًا. التفت صوبه ليجده على تلك الحالة، وقبل أن يبدأ بالاقتراب سمع بخاتي يقول:

– لقد مات كل شيء معك وكان يجب أن أموت أيضًا. لا أعلم لماذا ذهبت! تلك اللعنة لن يمحوها الربَ. حينما يجلس طيفكِ أمامي أشعر بالراحة وكذلك بالذنب. لولا حماقاتي لكنت هنا شحمًا لحمًا. ماذا فعلت أنا؟

انفطر قلب عثمان مما سمع. شعر بكمّ الأسى الذي يحمله بخاتي من بعد زوجته. الآن وجد بُعدا آخر ربما لم يسعفه الوقت لإدراكه. بخاتي يحمل على عاتقه الذنب لذلك سعى للانتقام علّه يخفف عنه بعضًا من ذلك! على الرغم من أن شعور الذنب إن ركب على عاتق إنسان لا يبرحه إلا في القبر.

وقف بخاتي من مجلسه وهو ينظر لنفس البقعة فابتعد عثمان قليلًا حتى يتركه في مناجاته وخلوته فسمع صوته وهو يقول منفعلًا:

– لماذا لا أسمع صوتك؟ تلك الابتسامة تحرقني أكثر من مواساتي. قولي شيئًا بحق السيد!

حاول الاقتراب منها ولكنه لم يجدها. ببلاهة استدار حول نفسه بحثًا عنها، وما أن توقف عند بداية استدارته من نفس البقعة التي كانت تحتلها حتى أخذ يفرك عينيه بقوة. هل كان طيفًا أم كان خيالًا صنعه الشوق؟

ببلاهة كان لسانه يردد «أين أنت؟» وهو ينظر إلى الفراغ. عندها كان على عثمان أن يظهر ليقف أمامه ويقطع عليه حالة الأسى لكن بخاتي دفعه بسرعة بعيدًا وهو يصرخ قائلًا:

– توقف، توقف! إنها هنا. لا تقف عليها، ابتعد!

تفهّم عثمان ما فعله بخاتي لكنه شعر بغصة في قلبه من تلك الحالة. كلمات بخاتي عن زوجته وما سمع من خبرها لم تكن لتصف تلك المعاناة على الرغم من علم ألمها العظيم عليه لكن لم يتخيل عثمان كمّ الأسى والندم الذي هتك قلبه وأسال دمعه وجعله يرى الخيالات أينما حل، في الصحو والنوم. ذلك إن صدق فهو غياب عقله وتوقف حياته عند تلك الليلة.

أكمل بخاتي بحثه وفجأة وجد عثمان أمامه وكأنه لم يرَه منذ لحظات ولم يدفعه حتى، فقال له:

– هل رأيتها؟ أنا فقط أراها فهي لا تحب الظهور أمام الناس، عفيفة الطلة قليلة الاختلاط. على الرغم من طمع العامة بها كانت ثابتة قوية، وكأنها الأرض ونحن حولها ندور. إنها وطني يا عثمان.

اقترب منه عثمان وقد اغرورقت عيناه بالدمع لكنه استطاع ايقاف سيله ليبدو قويًا ويعطي ذلك المسكين بعض القوة. وضع يده كالعادة على كتفه وضمه نحوه قليلًا ثم قال:

– لا أراها فأنت قلت إنها عفيفة. لا تحمل نفسك ما لا طاقة لها به! الآن علمت كم كان فراقها عليك عظيم. إنها تعلم ما في نفسك فتطوف حولك لكنها لم تكن هنا الآن يا بني. لقد كان شوقك لها هو الذي حضر. هون على نفسك وانهض واغتسل، وتعال نتناول شيئًا نقتات عليه قبل الذهاب!

تحرك بخاتي من مكانه وذهب ليضع بعض الماء على رأسه. لم يكن يستمع لكلام عثمان كله أو لم يهدأ به فغياب زوجته جعل منه شخصًا آخر، شخصًا يتمنى الموت حتى يلحق بها ولا يدري هل سيغفر له الرب تلك الخطيئة أم لا.

حمل ثقيل جثم على صدره وليس بحمل هين، وكأنه جمرة محترقة تلهب ما تحته. كانت زوجته وأهله، أرضه وعرضه. حكم قلبها منذ حررها من بيت أبيها بالزواج على الرغم من كونها حرة منذ ولادتها لكن حكم قلبها آل له دون غيره. أحسن معاملتها وكانت السعادة تغمرهما في كل لحظة. كم من صعاب مرت عليهما! كم من أيام عجاف أرّقت عيونهما! وكم من أيد غاصبة حاولت النيل منها! لأنها له، لم يفلح كيد من حاول الاقتراب، وجعل من كيدهم مسرة لها، والأن؟ غاب الجسد عنه وبقيت الروح هائمة تحوم حوله. يحمل على عاتقه مغبة طيشه فقد كان فعله سببًا في فراقها وموت تلك البهجة.

غاب بعضًا من الوقت وسط موجات أحزانه وما أن استكانت روحه حتى نظر خلفه ليجد الرجال قد اجتمعوا لأداء فريضة الظهر. وقف يتابعهم وهو يتأمل خشوعهم. شعر ببعض الراحة تسري داخله ولا يدري ما السبب لكنه تابع في صمت مرتجلًا حتى أنهى الجماعة صلاتهم، وعثمان من أمامهم.

بدأ الرجال بالقيام والانصراف عدا عثمان الذي بقي جالسًا قليلًا ثم رفع

كفّيه أمام وجهه وأخذ يتمتم ببعض كلمات في صوت خافت لم يسمعها بخاتي ثم نهض بهدوء ونظر صوبه. أشار إليه أن يقترب ففعل، وما أن وقف أمامه حتى قال له عثمان:

– دعوت الله أن يلهمك الصبر على ما فقدت، وأرجو أن تجد الراحة طريقها لقلبك يا بني.

ثم سحبه من يده برفق باتجاه تجمع الرجال لينالوا بعض الطعام والراحة، فجلس بجواره بينما نظر الرجال له ولعثمان. بدأ بتلاوة صلاته ثم صلّب على صدره وبدأ بالأكل دون أن ينطق أحد منهم ببنت شفة.

مرّ الوقت سريعًا وبدأت الشمس تتحرك درجتان صوب الغروب. هنالك نهض عثمان وطلب من الرجال الاسراع لبدء التحرك مرة أخرى حتى يصلوا بوصير قبل غروب الشمس، وبالفعل جمعوا أغراضهم إلا بخاتي الذي وقف مكانه ينظر لتلك البقعة التي رأى فيها بولخاريا، وكأنه فقدها للتو ولا يدري ما حل به لكن حانت لحظة الذهاب وكان عليه عبور تلك البقعة ليبدأ طريقًا جديدًا إلى مجهول

الفصل الثالث عشر

وصل الركب بوصير، فنزل الرجال من ركوبهم وتجمعوا حول عثمان الذي قال لهم:

– علينا الاسراع وإعداد المبيت. سنقضي ليلتنا هنا في الدعاء ونستطلع الخبر من المحيطين. لا بد أن هناك ما يحمله أولئك القوم، ولا تنسوا إطْعام المجاذيب!

نزل بخاتي بدوره ينظر حوله، يستكشف تلك الأرض الجديدة. أناس متفرقة ما بين أسفل التلة وأعلاها. هناك من يفرش على الأرض ويعرض سلعًا، والبعض الآخر يحمل في يده خرقة ملفوفة يدور بها على المجاذيب والمحتاجين ليعطيهم مما لديه. نظر إلى أعلى فوجد البعض يصعد التلة متجها صوب مبنى متهالك قديم تجمع من حوله بعض الناس، منهم من وقف ينظر إلى السماء ومنهم من كان يصلي.

بدأ يتحول في المحيط بينما رجال عثمان يتفقدون المكان ويعدون العدة للمبيت، وعثمان قد بدأ بالتجول بين الرحالة ليتفقد الخبر القادم من الفسطاط أو من باقي كور مصر. كان يستمع لأحد الرجال فلم يقترب منه خشية أن يكون هناك أمر ربما يود اخفاءه فأكمل سيره حتى وصل إلى أسفل التلة مباشرة فوجد سيدة تحمل على قدمها فتاة صغيرة.

اقترب منها بخاتي فسألته الاحسان بما لديه لتلك الطفلة الصغيرة لكنه لم يستمع لها، لقد عاد بذاكراته حيث تلك السيدة التي كانت سببًا في عراكه مع يوسف العباسي. عاد يتساءل، هل كانت مكيدة أم كانت تلك السيدة

حقًا تستحق المساعدة؟ وحتى لو كانت مكيدة، لقد فعل بها خيرًا وأسرع صوب داره وأحضر لها من قوت أهله وعمل على مداواة طفلها. هل كان ذلك جزاء فعل الخير؟

تعجبت المرأة من نظراته الصامتة نحو صغيرتها وبدأت تشعر الريبة فنهضت من مكانها خوفًا، وقبل أن تنصرف حضر أحد رجال عثمان وأخرج من خرقة بعض الفاكهة والخبز ثم أعطاها دينارًا وأشار لها صوب عثمان وأخبرها أن تدعو له فانشرح صدرها لكنها عادت لتنظر نحو بخاتي الذي لا يزال غارقًا في التفكير. أخبرها الرجل بصوت خافت أن ذلك الرجل مكلوم، فقد زوجته ورضيعه منذ أيام ولا يزال ينتحب لأجل غيابهم فأشفقت عليه بعدما علمت خبره.

انصرفت السيدة وعاد الرجل صوب عثمان وقصّ عليه ما حدث فاستأذن عثمان من الرجال الذين اجتمع بهم واتجه صوب بخاتي الذي بدا شارد الذهن. أمسك عثمان بيده وطلب منه الجلوس فانصاع له، وما أن جلس حتى عاد بخاتي يكمل قصته والسيدة المجهولة وما حدث بعدها مع يوسف.

استمع له عثمان باهتمام وما أن أنهى حديثه حتى قال له:

– أقرب الظن أنها كانت مكيدة لكَ وأن تلك السيدة قادتها الحاجة والمرض لفعل ما فعلت حتى تطعم صغيرها، وربما أجبرها ذلك العباسي على فعل ذلك لكن يا بني لا تندم على خير فعلته! وأعلم أن الله لا يقطع الخير بالشر ولكن يجعله لكَ في عملك لتحصده فلا تحزن!

طلب منه النهوض واللحاق به، فهناك الكثير من الخبر عن أمر الثورة فتبعه. عاد عثمان للرجال واعتذر منهم ثم أشار لهم نحو بخاتي فألقوا عليه التحية

فبادلهم إياها. سرعان ما عاد عثمان ليسأل الرجل عن خبر رجل يدعى عبدوس الفهري فأجابه أحد الرحالة:

– حينما فزع المعتصم لمساندة الخليفة المأمون في حربه مع الروم؛ انتفض الوجه البحري بأكمله في وجه بن المنصور فقادهم عبدوس الفهري وانضم معه جماعة من القبط أيضًا. راح يقتل رجال المنصور ويسلب ما لديهم، فخرج عليه المنصور ومن معه لقتاله لكنه لم يقدر عليه فتقهقر وعاد يجر ذيل الخيبة فسمع بذلك المأمون وما قد وصله سلفًا عن خبر أهل البشمور فأرسل لقائده حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين لمهاجمة عبدوس ومن معه. نزل الأفشين على رأس جيش كبير إلى مصر لدحر الفهري وليس البشموريين فحسب كما أشاع العامة. عاد عيسى بن المنصور وانضم لجموع الأفشين فتجمَّعوا وتجهَّزوا لقتال القوم وواقعوهم فظفروا بهم بعد أمور وحروب. أسَروا وقتَلوا وسَبَوا ثم مضى الأفشين إلى الحوف وقاتلهم أيضًا لما بلغه عنهم، وبدَّدَ جمعهم وأسر منهم جماعة كبيرة بعد أن بضعَ فيهم وأبدع. هرب أكثرهم وتشردوا من الغربية وذهبوا لأرض البشمور دعمًا للثورة لكن دون عبدوس الذي وقع في يد الأفشين الذي لاحق الجموع نحو الأرض الموحلة. أمس وصلنا خبر أن المأمون قد غادر دمشق منذ يومين قادمًا لمصر على رأس جنوده بالدعم بعد فشل الأفشين دخول أرض البشمور الوعرة، وأرسل في طلب الأنبا ديونسيوس من انطاكيا ليوافيه عند الفارما. ذلك ما وصلنا من خبر الحوف والغربية يا شيخ.

نظر عثمان صوب بخاتي وحاول أن يشركه الحديث حتى يصرف عنه بعضًا من همه فقال وهو ينظر له:

– حضور الأنبا ديونسيوس له شأن آخر. أظن أنه سيعمد لمقابلة الأنبا

يوساب بعدما اعتلى البطريركية وذهب إلى قصر الشمع، أليس كذلك؟

نظر له بخاتي ثم عاد بنظره صوب الرحالة وقال:

– لو كنت تسألني كقبطي فدعني أفسر لك ذلك مما عندي من خبر! قصر الشمع انشغل بحربه منذ زمن على الملكانيين الهراطقة أبناء قيرس (المقوقس) البيزنطي فنحن اليعاقبة من بعد خروج البيزنطيين من مصر نحاول الحفاظ على سد باب العودة من بعد ما لحق بنا قبل قدوم عمرو من تعذيب و تنكيل. كانت حربًا ضروسًا، منذ دخول بن العاص مصر وسماحه للأنبا مرقس الرجوع للبلاد وتولي أمر الأقباط لكن بسبب ما تبع ذلك من اضطهاد الولاة والمحتسبين في زيادة الجزية وما تبعه من اعتناق الكثير من الأقباط الاسلام، صار همّ البطريركية الحفاظ على أرواح القبط لمواجهة طمع الهراطقة الملكانيين من الداخل والخارج. كنت في بداية تلك الرحلة أسأل نفسي سؤالًا واحدًا، لماذا يرسل الأنبا يوساب رسله برسائل للبشامرة يحثهم فيها على وقف القتال؟ كنت في ذلك الوقت أبغض ذلك وأنكره لكن ربما فطنت الآن لسبب اصراره على إرسال رسله. لا قوة للبشامرة على مواجهة جيوش المأمون مما جعله يحافظ بتلك الرسائل على أرواح أهل بشمور من القبط لكن بعد تلك الثورة العارمة في مشرق الأرض ومغربها ومساندة طوائف الشعب للبشموريين، أظن أن هناك شيئًا جديدًا.

لم يتعجب من كلامه الرحالة فقد صدق حتى أن عثمان قد أومأ برأسه تصديقًا لما ورد على لسانه فعاد أحد الرحالة ليفتح الحوار من جانب آخر حول أحوال التجارة. قصّ عليهم من خبر تنيس مدينة النسيج وكيف أصابها الركود في تلك الفترة من بعد نهب بعض قوافل التجارة.

عقّب على ذلك عثمان الذي كان يذهب لجلب أقمشته من تنيس فذكر من خبر تلك المدينة العتيقة، وأن كسوة الكعبة الشريفة تنسج هناك لمهارة صانعيها، وكيف كانت تلك البوابة معبرًا لمرور البضائع القادمة من بلاد الأعاجم عبر ميناء الفارما فكانت تنيس سوقًا كبيرة لتبادل السلع.

قال أحد الرحالة:

– تلك البلاد لم تأمن كيد لئيم منذ حباها الله بنعمه وخيراته من بعد الفراعنة الشداد. تعاقب عليها الطامعون، تأخذهم شهوة خيرها فيغتصبون ما تسنّى لهم من أرضها ولكن تبقى روح الأرض باقية وستظل حتى قيام الساعة. تلك الأرض المباركة التي خصها الله بالذكر في محكم آياته والتي كانت أرض أحفاد نوح وأرض ميلاد ادريس وموسى وهارون. مشى على ترابها ابراهيم الخليل ومن بعده يوسف الصديق وأبوه يعقوب والأسباط، وأظلت مريم العذراء وعيسى.

ما أن ختم تلك الجملة حتى نظر إلى بخاتي الذي كان ينظر أعلى التلة وكانت الشمس في طريق الزوال. كان يتابع تدافع البعض صعودًا صوب غرفة السجن. شعر عثمان برغبته في الصعود لأعلى فطلب الرخصة من الرحالة ليصعد ويستعد للصلاة هناك ثم يلتقي بهم بعد انتهاء خلوته فأعطوه الرخصة وذهب مع بخاتي.

بدأت الشمس رحلة غروبها عن ذلك النهار لتعلن قدوم الليل حين اتخذ عثمان ورفيقه بخاتي طريقهما صعودًا نحو زويرا. لم ينطق أحدهما ببنت شفة وحاولًا الحفاظ على ما لديهما من

طاقة لقطع تلة الرمال حتى وصلا قمة التلة.

كانت الشمس قد غابت تمامًا وآن وقت صلاة المغرب. ذهب عثمان ليتوضأ بقارورة من الماء قد حملها على خصره ثم بدأ صلاته مع بعض الرجال في حين اتخذ بخاتي موضعًا آخر وجلس ليتفقد غرفة السجن. لقد سمع منذ زمن ليس ببعيد عن قصة ذلك السجن وتذكر قصة يوسف عليه السلام لكنه وقف أمام السجن ليرى مكانًا قد قضى فيه نبي نحو سبع سنوات.

أخذ يتأمل المكان وفي داخله شعور ببعض الراحة. على الرغم من الصراعات التي افتعلها الحزن داخل أحشائه إلا أن الروحانيات في تلك البقعة كان لها رأي آخر.

بينما قادته قدماه نحو باب السجن، سمع رجلًا قد اتخذ موضعًا إلى جوار الحائط ينتحب بصوت مكتوم وكان يردد بعض كلمات تحشرجت في حلقه من كثرة بكائه. حاول الاقتراب منه ولم ينتبه له الرجل المكلوم. كان يسند رأسه على الحائط متجهًا للأعلى وعيناه من كثرة الدموع تورمت فنام الجفن على بعضه فلم يبصر ما حوله. بينما كان بخاتي يقترب سمعه يناجي ربه ويقول:

– لم أفعل لهم شيئًا. حتى قوت يومهم عجزت أن ألبيه. مات صغيري جوعًا ومرضًا. لقد رأيت كيف كان يتألم، لقد رأيت كم توسلت لهم! لم يسمعني أحد ولم تأخذهم بي رحمة حينما هتكوا عرض ابنتي أمامي، لأنهم رجال المتولي وجنوده وأنا رجل ضعيف لا أملك من الدنانير ما يسد جوفهم. هذه شكواي يا رب السماوات. اللهم أهلك حاكمًا ظالمًا ترك حاشيته تأكل لحم الناس!

ارتجف قبل بخاتي مما سمع. شعر أخيرًا أنه بعد موت عائلته لا يزال يمتلك من الشعور ما يكفي للحركة والبكاء أيضًا. تسللت دمعة منه دون وعي. لا يدري هل كانت دمعة شفقة أم دمعة حنين لزوجته أم قهرًا مما فعله بشاي!

اقترب ليجلس إلى جوار الرجل دون أن يتكلم وعيناه لم تبرحا ذلك المكلوم، وعقله يتصارع ما بين حاله وحال الرجل لكنه انتقل إلى مكان آخر. ذلك الظلم الواقع على الرعية لم يكن إلا بسبب جشع من تولى البلاد وانشغاله بالصراعات منذ حلت قدم العباسيين مصر من بعد الأمويين.

تذكر ما رواه أبوه من خبر القبائل القيسية التي جلبها بنو أمية إلى مصر ليسكنوا الحوف الشرقي، وزاد عددهم بعدما وفد بن الحبحاب مصر إبان خلافة هشام بن عبد الملك الأموي والصراعات التي شهدتها كورة بلبيس. بعد قدوم العباسي، شعر القيسيّون والمصريون بالظلم من جراء فرض زيادات جديدة على الخراج، أجحفت بالمزارعين لتبدأ الأرض رحلة الهلاك.

اتخذ القيسيون الحوف الشرقي مأوى لهم وأصبح فيما بعد أرضهم بعدما سمح لهم الخليفة بالزراعة وتربية الدواب في المنطقة الزراعية قرب صحراء بلبيس. لقد عملوا على جمع الخراج لصالح الأمويين وإرساله خارج مصر مع البضائع فكان الفرد من آل قيس يكتسب من نقل تلك المحاصيل ما يقارب العشرة دنانير نهاية كل شهر.

تبدل الحال حينما أصبح العباسيون على رأس مصر وتولى الخليفة في بغداد زمام الأمور. اندلعت الاضطرابات في أنحاء مصر بالصراع ما بين الأموي والعباسي مما دفع الثاني لزيادة الخراج لسد حاجة الجيوش من ناحية وإهلاك الشعب الثائر من ناحية أخرى حتى كانت سنة (178 هـ) حين فرض خراجًا جديدًا فثارت الأرض بمن عليها، وثار أعراب قيس على تلك الزيادة وجمعوا فرسانهم وأقاموا لهم عسكر منع تحصيل الضرائب فبعث إليهم الوالي العباسي جيشًا لم يستطع إخماد ثورتهم فأرسل إلى هارون الرشيد يطلب المدد فأرسل له جيشًا هائلًا يقوده هرثمة بن أعين. نزل ذلك الجيش الحوف الشرقي فأخاف

القيسيين فأذعنوا ودفعوا الخراج كله.

تلك الأرض كانت شاهدة على الكثير من الدم المهدر فعاد بخاتي بالذاكرة لقصص أبيه ومن بعدها لما شهدته عيناه حتى بزغ له سؤال واحد؛ ما ذنب المساكين من أهل مصر؟ تلك الصراعات من أجل نفوذ ومال أكلت بنيرانها الكثير من الأبرياء. ما ذنب المساكين؟

غرق بخاتي في بحر أفكاره، يحاول البحث عن نفسه داخل إجابة ما يدور في خلده وبينما رياح الفكر عاصفة به؛ شعر بأحد يجلس إلى جواره فنظر فإذ بعثمان قد لاحظ شحوبه وجلوسه إلى جوار ذلك المسكين. تبعه أحد رجاله حاملًا قدرًا به القليل من العسل وبعض الخبز وحبات التمر والأترجة. طلب منه عثمان تقديمها للمسكين فأخذها ووضعها بجانبه. دون أن ينظر الرجل، شكر العاطي وحمد الرب بصوت مكسور.

نظر بخاتي ناحية عثمان وقال:

– كان الهمّ يحيط قلبي من بعد ما حل بي. كنت أرى الأمر من خلالي يا شيخ حينما بدأت رحلتي معكم لكنني رأيت من الخبر العجيب ما لم أرَه، وسمعت ما لم أُحط به خُبرا. رأيت ربوعا سادها الخراب ومساكينا أنهكها الظلم وشحّ المال. الفقر والمرض أحاط الناس بعتمته. ما ذنب المساكين والضعفاء؟

اعتدل عثمان حيث واجه بخاتي وتنفس بعمق ثم قال:

– هذه البلاد من القدم أنهكها الطمع فجار عليها من جار، وانتهك عرضها من استطاع. اغتصب خيرها الغاصبون ولم يتركوا خيرها لأهلها. لأنها أرض مباركة وخيرها وفير، عمد كل طامع لها. هكذا حال الصراع عند الغاصبين،

إن زحفوا نحو أرض لا ينظرون إلى عيالها فلا بأس من بعض الدماء في سبيل المُلك، ولا بد من الكذب ليطعموا عقول الضعفاء. كل من تولى أمرها أطعم أهلها وعودًا في الصباح وانتهك عرضهم في عتمة الليل. إن ماتت هذه الأرض تحت أقدام غاصبيها فلن تموت روحها فالناس من الأرض وأجسادهم تعود إليها لكن روح الأرض لا تختلط بروح غاصبيها فتبقى الروح ممتزجة بطين هذه الأرض، تمامًا كروح زوجتكَ التي لن تفارقكَ.

ارتجف قلب بخاتي من تلك الجملة. عصف به الحنين إلى بولخاريا وعاد يتذكر تلك الأيام التي قضياها معًا، في حين تزحزح عثمان من مجلسه قليلًا صوب الرجل المسكين وربت على كتفه وأخذ يحدثه بودّ ليشد من أزره. فنظر له بخاتي دون أن يتعجب فقد بدأ يعتاد على طبيعة ذلك العثمان. نظر إلى دواخله فرأى فيها من الطيب والحكمة ما يكفي ليستأنس به ويتبعه في رحلته دون تفكير.

تابعه وهو يتحدث إلى المسكين وبعد قليل أمسك بقدر الطعام وأخذ يطعم به المسكين الذي هدأ قليلًا بكلمات عثمان. ابتسم بخاتي دون شعور وأعاد رأسه ليستند بها على حائط السجن فوجد فجأة ريحًا باردة تهب على وجهه. نظر فإذ ببولخاريا تقف أمامه، تبتسم له بودّ فأعتدل في مجلسه وقال:

– أين كنت طيلة اليوم؟ انتظرتك طويلًا.

جلست على الأرض في مواجهته مباشرة وعلى وجهها نفس الابتسامة حينما استطرد يقول:

– هل ستجيبين عن السؤال أم نكتفي بالصمت يا بولخاريا؟

سمع عثمان جملته الأخيرة فالتفت صوبه فوجده ينظر أمامه باهتمام واضح فعرف أنه يراها. شعر بغصة في قلبه من حال بخاتي البأس فعاد للمسكين حتى لا يقطع عليه خلوته، وربما يحاول الهرب من تلك اللحظة التي سيتألم فيها قلبه مع كلماته لروح بولخاريا.

بدأت ملامح بخاتي تتبدل إلى الحزن من بعد الابتسام. كانت لا تزال جالسة وعلى وجهها نفس الابتسامة لكنها لم تجبه بعد. قبل أن يعود برأسه للخلف ليستند على الحائط، أجابته مع ابتسامة مدللة:

– أنت لم تنبه لوجودي معك طيلة اليوم. منذ أن غادرت حدود الحوف الشرقي حتى وصلت هنا، كنت على يمينك ولم أبرحه. لم تلحظ ذلك، وها أنا الآن حزينة لأنك لم تشعر بي.

عاد برأسه سريعًا صوبها وقال باهتمام:

– لم أرَ شيئًا. كيف تفعلين ذلك؟ كنت أنتظرك طيلة الوقت.

عادت تبتسم وقالت:

– عليك أن تعتاد على ذلك يا عزيز القلب. أنا معك طيلة الوقت لكنك لن تراني في نفس الوقت فلا تحزن من ذلك! كن مطمئنًا أن زوجتك لن تغيب!

نظر لها بحزن حينما تذكر أنه يخاطب الروح ولن يحظى بلمس يدها ولو لحظة واستطرد:

– لم أغادر بلبيس منذ ولادتي سوى مرة إلى أتريب مع أبي، والآن أذهب معك في كل بقعة.

– كن سعيدًا فروح زوجتك سعيدة يا عزيز القلب.

حاول حبس دموعه لكنها باغتته وهربت من محجريها قبل أن يغمض جفنيه ليمسكها من السقوط، وما أن فتح عينيه لم يجد الدموع على وجهه ولابولخاريا أمامه.

الفصل الرابع عشر

ليلة قضاها الجميع في الدعاء وطلب العفو من الله على سطح زويرا. لم يغب فيها بخاتي عن بال عثمان الذي كان ينظر له بين الحين والحين ليجد الصمت قد أحاط به من كل صوب لكنه أخيرًا قرر الخروج من حالة العزلة ليذهب صوب الجالس بحزن شديد. اقترب منه دون أن يشعر به لكنه توقف فجأة بعدما سمعه يتوسل إلى الرب أن يسامحه على خطاياه.

كان يبكي ويتمتم بكلمات بعضها غير مفهوم من جراء نحيبه لكنه توقف فجأة ليمسح دموعه فنظر عن يمينه ليجد عثمان واقفًا على مقربة منه فأعتدل في مجلسه. اقترب منه عثمان وطلب منه السماح بالجلوس فنهض بخاتي له قبل أن يجلس وقال:

– كنت في حضرة الرب، أطلب منه المغفرة لما قدمت في تلك الحياة من خطايا لمن حولي وكانت سببًا في هلاك زوجتي وابني. حاولت كثيرًا أن أقف في حضرة الأنبا ميخائيل وأعترف بذنبي لأغتسل وأتطهر من داخلي لكنني عجزت. أنا لست ذلك الصالح الذي يراه الناس فلي ذنوب اتسخت بها روحي فتلطخ بها من هم حولي، وماتت بها بولخاريا.

لم يفهم عثمان ما أراد بخاتي قوله. رفع يده يمسك بخاتي من رسغه وجذبه لأسفل كي يجلس لكنه انتصب ورفض الجلوس. جذب يده برفق من يد عثمان وتحرك صوب اليسار ونظر للسماء وقال:

– من جعل من بشاي هذا الكائن؟ من ساعده على هرطقته ونزع عنه رداء الصلاح منذ صغره؟ أنا من فتح له الطريق بعدما نزغت بينه وبين أبيه وجعلت قلب والده يبغضه. كم من حيلة صنعت حتى يصبح ذلك الكبير صغيرًا! من وضعه في ذلك الطريق؟ من قدمه للغانيات؟ أنا من جعله هدفًا

لماريز الغانية لأحط منه وأغرقه بالشهوات فتبتعد عني من بعد ما دنست جسدي بخطيئة الزنا مرات قبل بولخاريا. طلبت المغفرة من الرب قبيل زواجي وأصبحت صالحًا لكن لا أظن أن الرب قد غفر لي لذا جعلني أتجرع من نفس الكأس فذهبت عني زوجتي.

اندهش الشيخ مما سمع فذلك البخاتي له جانب مظلم أيضًا، ولِمَ لا؟ كلنا عنده جانب مظلم لكن أحيانًا تنخدع أعيننا بما تراه، وحينما تنكشف أقنعة الواقع تظهر على أرواحنا علامات الدهشة.

تبعه عثمان ووقف خلفه مباشرة وقال:

– هل تظن نفسك ملاكًا أرسله الله للأرض؟ كلنا بشر وكل بني آدم خطّاء، ويتقبل الله منا التوبة والاستغفار. لا تقرن ما حل بزوجتك بذلك الاثم يا بخاتي!

لم تجد تلك الكلمات صداها عنده فعثمان نفسه لم يستطع إتقان إلقاء تلك الجملة لتبدو مقنعة له لهذا لم يستدر نحوه ولم يُعِرهُ انتباهًا حتى. ساد صمت لدقائق لم يتحرك فيها أحدهما حتى قطعه بخاتي وقال:

– كان على الكبير أن يمتلك زمام الأمور. أن يصبح ساعد والده الأيمن ووارثه لكن أنا لم أترك لبشاي أن يحظى بذلك. منذ طفولته كان الأبلة محدود الذكاء فكان من السهل عليّ إيقاعه في المتاعب ليصبح صغيرًا قليل حيلة أمام والده.

مرة تلو المرة طلب أبي العون في بعض أمور الأرض ففعلت، ومن بعدها أمور البيعة ففعلت ثم أمور البيت ففعلت. كلما تقدمت من مُلك أبي ابتعد أخي عنا خطوة ونجحت أنا خطوة، حتى وقع بخيبة وحسرة، وانصرف للهو والهرطقة فقد فتحت له الباب بصديق السوء، وقهره مما فعله أبوه، ومن بعدها جاء دور الماجنة.

صمت دون أن يكمل عن الماجنة وتقدم خطوة للأمام. تنفس بعمق والتفت وهو يزفر ما في صدره ثم نظر صوب الشيخ واستطرد:

– ماريز خطيئة ما قبل بولخاريا. لست قديسًا أسبح في ملكوت الرب. بينما انشغل أخي بخيبته وغضب والديه، كانت لي الحرية في كل شيء. نهارًا أنا ولدهما البار المطيع القديس بخاتي، وليلًا من خلف غيوم الليل السوداء كانت الدناسة تحيط بي مع ماريز في بيت الماشية أحيانًا وفي الكوخ الصغير في آخر الأرض. كانت تحبني وتسعى للزواج مني لكنني لم أستطع خذلان والديَّ، وبالتالي خسارة أرضي وبيتي. نلت منها ما أريد ونعمت بحرارة جسدها من الداخل والخارج فكانت خادمة مطيعة لشهواتي الحيوانية لأن قلبها أعمى. في ذلك الوقت وما أن وقعت عينيّ على بولخاريا، تبدل الحال. سعيت بكل ما أملك لتطهير ثوبي الملطخ بالدنس. بدأت بنهر ماريز والتوقف عن مواعدتها، وحينما بدأت تُلح في أمر زواجنا بدأت بنصب خطة الهروب. أنا من فض بكارتها، أنا من حولها من فتاة عادية إلى غانية تبيع جسدها مقابل المال. حينما بدأت بخطة الهروب، وسوَستُ لأحدى رفيقاتها بأن تتبع بشاي أخي فهو لا يملك العقل ليفكر ويملك المال. كذلك يستطيع الزواج بها إن أوقعت به لكنها فعلت ذلك فقط كي تنتقم مني به، وهكذا كان الشيطان يجلس ليراقب ما فعله البشري المُدنس بخلاصه من هرطقته وأخيه في نفس اللحظة. اقترب منه عثمان بعد ما سمعه. لقد تخبطت صورة بخاتي داخله بعض الشيء وظل يسأل نفسه هل كان مخطئًا في حكمه عليه؟ لكنه فجأة توقف حينما تذكر أمرًا هامًا، لماذا تخبط مما قاله؟ هل لسوء حكمه على ذلك الرجل أم أن ما قاله أيقظ شيئًا داخله؟

عاد عثمان لنقطة بعيدة في حياته. لم يكن ذلك القبطي وحده من أخطأ لكنه كان قويًا أكثر من شخص آخر أخفى خطاياه تحت ستار الحكمة والورع. لقد كان قويًا بما يكفي ليواجه نفسه ويفصح عن دنسه أمام رجل يجهله، مجرد رجل تشارك معه رحلة نحو المجهول. رجل أخفى نفسه تحت ثوب أبيض لكن ما أخفاه كان أبشع. تحرك عثمان حتى وقف في مواجهة بخاتي ونظر في عينيه

وقال:

– لم تجد كلماتي الأخيرة طريقها نحو قلبك لأنها لم تكن كلمات نابعة من قلب صافي. أنت أيضًا رأيت صورة الطُهر على وجهي ولم تدخل تحته، فهل حكمت عليّ من ثوب نظيف ولسان يجيد الحديث؟

لفتت تلك الجملة انتباه بخاتي. لقد شعر بشيء يتحرك تحت تلك الجملة، شيء على وشك الظهور عن عثمان نفسه. وقف بخاتي بترقب لما سوف يخبره به عثمان حينما استطرد:

– حمزة، ذلك الرجل الذي جعل مني عثمان، أنا مدين له بكل شيء أنا عليه الآن حتى بعد وفاته. هو من علمني سبل التجارة وجعل لي مكانًا في بيته وتجارته. لم يكن معلمًا لي وناصحًا فقط بل كان أبًا. علمني فصاحة اللسان والحكمة فهو صاحب ذلك الثوب. كان يثق بعقلي ودائما ما يمتدحني أمام العامة. كانت له زوجة تصغره في العمر عشرون عامًا، جميلة وتملك من الدلال ما يجعلها تقسم الأرض نصفين حينما تسير عليها لكن الشيطان أعطاها بعضًا من خبثه فكانت تنصب خيوطها حولي دائمًا. نزواتها كانت تحركها نحوي دون تفكير فدائمًا ما كانت تحاول النيل مني وإشباع شهواتها الحيوانية معي. تثيرني حدّ اشتعال حواسي لكنني لم أستطع خيانة أبي ومعلمي، وكان ذلك يثير غضبها أكثر كلما حاولت إثارتي فنهرتها.

ابتعد قليلًا عن بخاتي ونظر إلى السماء علّه يستطيع جمع بعضه قبل أن يُكمل! أما بخاتي فكان يترقب بصمت ما سيقوله عثمان:

– تآمرت تلك الملعونة مع الشيطان للخلاص من زوجها والنيل مني فكانت تريدني بشدة. كانت تظن أن العقبة الوحيدة هي زوجها ولو مات فسأصبح ملكًا لها طمعًا في مالها ورغبة بحسنها ودلالها. ذات ليلة حينما ذهبت لزيارته حيث كانت فيه علّة خبيثة عجز عنها الجميع، وبعد تناول الطعام طلبت مني أن أساعدها في حمل بعض الحبوب من مكان ملحق بالبيت فنظرت لزوجها الذي أعطاني الرخصة. بعد أن وصلت أغلقت الأبواب وبدأت تنظر لي

بحميمية مبالغ فيها. اقتربت ووضعت يدها على صدري وحاولت تقبيلي لكنني نهرتها ودفعتها فسقطت أرضًا. حاولت الهرب لكنها قبل أن أغادر أقسمت على أن أدفع ثمن ذلك وقريبًا فتوقفت وعدت بنظري إليها.
ضحكت وقالت إنها سوف تخبر زوجها أن من علمه وجعل منه رجلًا حاول النيل من زوجته الصغيرة البائسة بعدما استغل مرض زوجها والخلوة بينهما. كانت على يقين أنه سيصدق روايتها لأنه أحبها بشدة. عدت أقف أمامها مستنكرًا لمَا سمعت فذلك الرجل الكبير لن يتحمل تلك الصفعة، وأنا لن أجد ما أدافع به عن نفسي فالحب قد يُعمي القلب يا بخاتي ولن يصدق روايتي مهما كنت صادقًا لكنني لن أستطيع فعل ما تريد مهما حدث. لن أطعن رجلًا قال لي يا ولدي في عرضه فهممت بالانصراف. لكن الشيطان كان له كلمة أقوى فخرجت بعد قليلًا بعدما مزّقت جزءًا من ثيابها وعبثت بشعرها حتى يظن من يراها أن هناك من حاول الاعتداء عليها. ذهبت تبكي إلى غرفة زوجها المريض وبدأت اللطم والعويل وهي تخبره أن ولده العاق قد همّ بها وطعنه في شرفه. لم يتحمل حمزة ما سمع وزادت حالته سوءًا ولم ينطق بعدها بكلمة. حينما علمت بما آلت إليه حالته ذهبت مسرعًا، وما أن لمحني حتى ثار وهاج وبدأ يحرك يده اليمنى بغضب. نظرت لها فوجدت على ثغرها ابتسامة شيطانية فهمت منها ما حدث. اقتربت منه وأنا أقسم أنها كاذبة، محاولًا تبرئة نفسي لكنه لم يسمع بل زاد غضبًا. فجأة سكن وتوقفت يداه عن الحركة ثم جحظت عيناه وارتفع صدره لحظة ثم هوى في فراشه وسكت من بعدها. لقد فارق مُعلمي الحياة بسبب مكيدة تلك الشيطانة وهو غاضب عليّ يا بخاتي لكن الله يعلم السر. ما أن رأيت جثته الباردة وعينيه الجاحظتين حتى هجم الشيطان على رأسي يحرضني على قتلها، وبالفعل هممت بضربها وأمسكتها من شعرها وتناوبت عليه باللطمات حتى غابت عن الوعي فهربت بعدها. شيعت جثمانه لمثواه الأخير في اليوم التالي ورأسي منكس وكأني من قتله. ربما أنا حقًا من قتله لأنني لم أُبَصّرهُ حقيقة تلك الملعونة لكن هل كانت

الحقيقة ستجد طريقها إلى عقله؟ لقد فات أوان ذلك. مرت الأيام والحزن لا يزال يعتصر قلبي على حمزة. كنت دائما أذهب إلى لحده وأبكي كطفل صغير، ومن يشاهد ذلك يحزن على حزني الشديد ويحاول مواساتي ولا يعلم منهم أحد سبب حزني وكمدي، وتلك الآثمة الغافلة لم تذهب حتى مرة واحدة إلى لحده. بعد فترة ليست بالبعيدة أخبرني أحد الرجال أنه يرتاب لأمر زوجة حمزة. هناك شيء يحدث ليلًا في بيتها وكثيرًا ما يرى رجلًا يدلف إلى البيت سرًا ولا يغادره لأيام إلا ليلًا. حاولت التحقق من صدق روايته وبالفعل كان صادقًا. لقد واعدت البغيّ أحد الرجال الغرباء عن البلدة سرًا فوجب عليّ حفظ عرض مُعلمي حتى لا يشيع الخبر بين الناس. ذهبت لذلك الذي أوردني خبرها برواية كاذبة أن من يدخل هو أحد الخدم يعمل لنظافة البيت ويغادر بعدما ينُهي عمله، وكي يصدق ذلك أخبرته أن أم زوجة معلمي انتقلت للعيش معها وأن روايته لا صحة لها فصدق الرجل روايتي لكن هل أستطيع تكميم أفواه العامة كما فعلت تلك المرة؟ مرّ يومان واستيقظت الكورة على حريق شبّ في بيت مُعلمي. احترق المنزل ومات من كان فيه. لقد سكت العامة للأبد. استطعت تكميم كل الأفواه دون شرح يا بخاتي. لقد حملت بين أضلعي ذنب وفاة حمزة قهرًا ولم أتردد لحظة في حرقها. نعم، لقد حرقت الدار ومن معها حتى يسكت العامة. وحتى هذه اللحظة أنا لا أشعر بذلك الذنب لكن كانت تلك قتلة ومعصية لله، والآن ماذا؟ ذهب المال والدار والتجارة، وها أنا طريد تلاحقني اللعنة. أنا لست إلا بشرًا أحاطتني الخطيئة حينما نسيت أن قتل النفس من المُحرمات. لست وحدك من تطارده الخطيئة لكنك كنت الأقوى لتعترف، وها أنا الآن أخلع قناعي أمامك لأصبح إنسانًا.

ليلة قضاها الرجلان في اعترافات بالخطايا. خلع كلاهما قناع الصلاح وأخرج ما تحته من ذنوب. لقد اختار كلاهما المكان المناسب ليقفا ويتجردا من صلاحهما في بقعة اشتهرت بطلب الغفران فكانت ليلة الاعتراف بالذنوب.

خرج النهار من ظهر الليل ليبدأ يوم جديد في الرحلة. تابع الرجلان خطوات الليلة البطيئة حتى محاها الفجر بصمت. كل منهما في مكان يفكر فيما سمع بعدما خلع كلاهما ثوب صلاحه فبدت سوآتهما واضحة. انقضى الليل وكلاهما يسترجع خطاياه وأحيانا خطايا رفيقه في تلك الرحلة. ربما كانت تلك رحلة تكفير الذنوب.

توجه أحد الرجال صوب عثمان ليطمئن عليه بعدما لاحظ شروده، ولما اقترب منه علم أنه لم ينم تلك الليلة. لقد طلع على ظهر السجن في جوف الليل وهذا كان آخر ما تابعه الرجال قبل نومهم. حاول سؤاله فأخبره عثمان أنه بخير وطلب من الرجال تحضير الركب للسير صوب بشمور فاستجاب الرجل لكنه ذهب محتارًا.

نظر عثمان للطرف الآخر ليجد بخاتي جالسًا وعيناه مُعلقتان بالسجن ولم تذوق عيناه الراحة كعثمان. ليلة قضاها رفيقان في حضرة الخطايا وطلب الغفران.

نهض عثمان من مجلسه ليتوضأ واتخذ موقعه جوار السجن ليصلي. كان بخاتي يتابعه بصمت لكن فجأة ظهرت له بولخاريا وهي تبتسم مرة أخرى. اعتدل في مجلسه ونظر إلى الأرض وكأنه طفل صغير فعل ذنبًا أغضب أمه حتى سمع صوتها:

– سنوات لم تحاول الإفصاح عن تلك الخطيئة، وكلما جلست بين يدي ميخائيل في البيعة لم تحاول التطهر لكنك الليلة خرجت عن صمتك مع عثمان. أعلم أن ذلك الذنب يرهقك. لطالما كنت كذلك لكن ما يعنيني أنك ذو القلب الطيب الذي عشت في كنفه سنوات دون خطيئة فلا تحزن! الرب يغفر الخطايا.

رفع عينيه ببطء خجلًا ثم نظر إليها وقال:

– سنوات وأنتِ في كنف ذلك الشخص الذي سرق حياة أخيه وعاش في

طمث العلمانية قبل الزواج. حاول أن يتجمل في عينيك ويرتدي عباءة القديس لكن ما فعلته كان سببًا في فراقك. إنه عقاب الرب.

نهضت واقتربت منه وقالت:

– لم يكن عقاب الرب. لقد كان مُقدرًا أن نفترق هناك. لقد انتهت حياتي معك عند تلك النقطة لكن ستبقى الروح في كنفك أيضًا. لا تُحمّل روحك ما لا تطيق.

اختفت فأخذ ينظر في نفس البقعة ليتحقق من وجودها فلم يجدها. استدار يبحث عنها لكن حينما نظر عن يمينه وجد عثمان يجلس إلى جواره فانقبض قلبه لوهلة قبل أن يقول:

– لقد انهيت صلاتك سريعًا.

لم ينظر له عثمان وردّ عليه قائلًا:

– لا. لا بد أنك كنت غارقًا في حديثك مع روحها فلم تلحظ كم مرّ عليك من وقت. هيا بنا قبل أن يسرقنا الوقت! لا بد أن نصل بشمور قبل فجر الغد.

نهض بخاتي يلملم حاله ثم ذهب صوب الرجال يساعدهم. مر الوقت عليهم بعدما تناولوا طعامهم وجمعوا عدتهم وباغتتهم الشمس من خلف الغيوم معلنة موعد الرحيل. وقف عثمان مع الرحالة يتبادل معهم الحديث في حين تابعه بخاتي من بعيد. كان الرحالة في انتظار بعض الرجال القادمين من الحوف الشرقي ليلحقوا بهم صوب الغربية. قدّموا لرجال عثمان مِزودًا فيه جرة صغيرة من المشّ وبعض الخس والجميز وفطائر العسل وبعض من الحلبة وقفتين من الملتوت وبعض المفركة. شكرهم عثمان على ذلك المِزود وودعهم على أمل اللقاء قريبًا.

تفرق الجمع ما بين مرتحل نحو الغربية ورحل آخر صوب بشمور. لقد بدأ الأمر يزداد سوءًا بعد خبر قدوم المأمون فالبعض قد رفع يده عن الثورة والبعض أكل قلبه الخوف. أما من طالهم القهر والظلم فقد عزموا على

إكمال المسيرة حتى الموت.
لقد زاد الظلم وطغى ولم يسلم قبط تلك الأرض ولا مسلموها. في سبيل الجاه يهون الدم وفي سبيل المال تستباح الأمانة، ولا بأس ببعض الأرواح في سبيل الولاية والبلاط فالبطون ولادة لكن الأرض لا تعود إن اغتُصِبت.استعد الركب للرحيل فأخذ عثمان يودع البقعة المباركة بناظريه دون أن ينطق. دقائق وعاد لينظر أمامه منكَّس الرأس حزينًا. أما بخاتي فكانت عيناه تتابعان بترقب ذلك الرجل غريب الأطوار. إنه يشبه ملاكًا يسير على الأرض لكنه في لمح البصر عاد لطبيعته، لا يتعدى كونه بشر مثلنا، يخطئ ويتلاعب الشيطان بعقله. الملائكة لا تعيش بيننا فنحن نسل آدم كُتب علينا نزغ الشيطان ووسوسته فذلك رهانه إلى يوم يبعث الله الناس للحساب. لم يكن بخاتي وحده من عصى فذلك الشيخ الحكيم أيضًا كان من المخطئين لكن ما أخبر به بخاتي لم يقلل من مقدار احترامه له ولا توقيره بل أثبت له أن أهل الأرض كلهم مخطئون.
رفع عثمان رأسه فجأة ليجد بخاتي ينظر له فابتسم ابتسامة مهزوزة. مشاعر اختلطت في تلك الليلة لم يستطع كبحها. بخاتي الذي اعترف بخطاياه أمام رفيق رحلته المسلم، ولا يدري السبب، تذكره لذنب قد فعله في الماضي لكنه لا يزال يرافقه. ذلك الرجل الحكيم الوقور وما يحمله بين طيات ثوبه الأبيض من ذنوب لكن لماذا لطخ تلك الصورة المزركشة في عيني بخاتي؟ ربما حاول أن يخبر بخاتي أننا بشر، وكل البشر أصحاب معاصي.

****

وصل الركب جنوب مدينة الفسطاط. لم يشأ عثمان ورجاله دخول المدينة خشية أن يرتاب أحد لأمرهم فاتخذوا الحيطة وسلكوا الأرض الصفراء بسرعة. كان النهار قد شارف على الانتصاف. درجة واحدة وتتعامد الشمس على الأرض فطلب عثمان من رجاله الاسراع لدخول طريق النهر ليستريحوا ويلحقوا صلاة الظهر، وبالفعل أسرعوا في طيّ الطريق حتى وصلوا إلى حافة النهر فنزلوا عن رَكوبهم وبدأ بعضهم بإعداد بعض الطعام للرجال، والبعض الآخر ذهب لإعداد موضع الصلاة والوضوء. وقف بخاتي يتأمل الأرض وينظر صوب السماء. لاحظ عثمان انشغاله بأمر ما فاقترب منه بهدوء ووضع يده على كتف بخاتي وقال:

– ما الذي يشغل بالك؟

استدار ليواجه عثمان ثم نظر إلى عينيه مباشرة دون أن يتكلم ثم عاد لينظر صوب السماء وقال:

– ليلة أمس جلست أسأل الرب الغفران. حاولت كثيرًا الإفصاح عن ذنوبي والإقرار بخطيئتي في البيعة لكن لم أستطع الجلوس أمام الأنبا ميخائيل والاعتراف لكنني أفصحت لك ولا أدري السبب!

ربت عثمان على كتفه بود أكثر ونظر صوب رجاله المنهمكين في إعداد الطعام ومكان الصلاة ثم عاد لينظر له قائلًا:

– لقد كنت شجاعًا أكثر مني لتقر بذنبك أمامي. لم أرَ فيك إلا عبدًا صالحًا يسكنه الحزن على فراق ذويه، وفي الأمس رأيت فيك وجه الخطايا مما دفعني أنا الآخر للإقرار بذنبي الذي يجهله العامة حتى رجالي المخلصين. أنا أيضًا لا أدري السبب!

سمع فجأة صوت أحد رجاله يقول:

– من أنت؟

نظر خلفه ليجد رجلًا رثّ الثياب منهكًا من آثر التعب، واضح عليه أثر الركض لوقت طويل وكذلك الجوع والعطش فهجم على موضع الطعام قبل

أن يوقفه الرجال. توجه الرجلان صوب الجمع ليتفقدا خبر ذلك الغريب فسأله أحدهم مرة أخرى:

– من أنتَ يا هذا؟ ومن أين أتيت بهذه الحالة؟

كان الرجل لا يزال يلهث من تعبه فأشار لهم عثمان أن يعطوه فرصة ليستريح وأشار لأحدهم بإحضار بعض الماء. ما أن رأى الغريب الماء حتى هجم عليه ودفعه مرة واحده صوب فاهه ليشربه بنهم كأنه لم يرَ الماء منذ فترة طويلة حتى أغرق وجهه وصدره وارتوى ظمأه. نظر صوب عثمان وأخذ يتنفس بسرعة قبل أن يقول:

– أنا جندي.. من الفسطاط. من أنتم؟

اقترب منه بخاتي بعدما علم أنه قبطي. نظر إليه الغريب بخوف وحذر فلاحظ ذلك وحاول تهدئته فقال له:

– لا تخف! لن يؤذيك أحد. عناية الرب تحفظك. قل لي، ماذا حدث لك؟

صلّب الرجل على صدره بعدما اطمئن قليلًا حينما علم أن بخاتي من الأقباط، وبدأ يتنفس بهدوء. على الرغم من ريبته من ملبس بخاتي لكنه جلس بعدما أشار له بالجلوس بينما عثمان طلب من رجاله إحضار بعض الطعام له. نطق الرجل قائلًا:

– لقد عمّت الفوضى شمال البلاد حتى وصلت الغربية والفسطاط ما أن علم الناس بقدوم المأمون وما سبقه من نزال رجال الفهري والوالي. كنا مع رجال عبدوس الفهري حينما نازلنا رجال عيسى المنصور فقتلنا منهم نفرًا كثيرًا وأخذنا ما لهم من سلاح وعتاد لكن الخبر وصل المأمون في الشام فأرسل قائده الأفشين حيدر من الإسكندرية لينزل علينا. دعمه عيسى مع رجاله من بعد تقهقرهم ليشتعل النزال ويسقط منا من سقط، وما بين الكرّ والفرّ سقط الفهري في قبضة الأفشين وتشتت جمعنا. وجدت نفسي أركض بين البرايا حتى وصلت هنا.

نظر بخاتي صوب عثمان الذي كان يستمع بانتباه ثم اقترب من الرجل وجلس

على مقربة منه وقال له:
– لا تخف يا جندي! لقد نجوت منهم بفضل الله. اهدأ وتناول بعض الطعام ونَل قسطًا من الراحة وبعدها نتحدث.
أومأ الرجل برأسه مستجيبًا لما قال الشيخ ثم عاد برأسه للخلف ببطء لينزل بكامل جسده مستلقيًا على الأرض ليفرد طوله ثم وضع يده على عينه وتأوّه بصوت ضعيف.
تركه الرجال يستسلم للراحة وانصرفوا ليكملوا أشغالهم عدا عثمان ورفيقه فقد وقفا على مقربة من حافة النهر. قال الشيخ:
– لقد زاد الأمر سوءًا حقًا. قدوم المأمون إلى هنا يعني الكثير. فشلت جيوشه في إخماد الثورات واشتعلت الفتن في أنحاء البلاد. ليحفظنا الله من سوء غيبه!
عاد بخاتي بنظره صوب الرجل الغريب المستلقي على الأرض بتعب شديد وقال لعثمان:
– ماذا ستفعل به؟ هل ستتركه ونكمل أم تسأله الذهاب معنا؟
نظر له عثمان وقال بهدوء:
– لن يرفض الدعوة. أظنه سيكمل معنا الطريق حتى بشمور.
أشار له أحد رجاله حتى يذهب للصلاة فطلب الإذن من بخاتي وذهب.
جلس على حافة النهر ينظر لجريان الماء وفجأة سمع صوتًا عن يمينه يقول:
– ذلك الرجل الطيب صديق جيد. تعلم منه قدر استطاعتك ولا تدع كفّه تفلت كفّك! إنه يشبهك كثيرًا حتى لو كان كل منكما من ملّة مختلفة. لتكن تلك الكفّ موصولة يا عزيز قلبي!
انتفض حينما سمع ذلك الصوت فوجد إنها بولخاريا التي همست بتلك الجملة لكنه حينما نظر صوبها ابتسمت واختفت مرة أخرى.
شعر بالكثير من الحزن يعتصر قلبه. إنها معه في كل مكان لكنه لا يستطيع

لمسها ولا تبادل الحديث معها وقتما شاء. نظر إلى الأرض وأمسك صخرة صغيرة وقذفها في الماء لتصنع دائرة حولها تتسع شيئًا فشيئًا. تأمل ذلك المنظر الذي لم يكن بجديد عليه فظهر له وجه عثمان على سطح الماء وهو يبتسم له ثم غاب.

عاد بخاتي بنظره ليجد عثمان يؤم رجاله بخشوع. ظل يتساءل عن سر الراحة التي سكنت قلبه تجاه ذلك الرجل. على الرغم من أنه على دين آخر إلا أن المودة تجاهه قد وجدت طريقها عنده. كان يقيس الناس من قبل بملتهم وقد كان مخطئًا في ذلك. نسي أنهم أبناء نفس الأرض ومن نفس الطين فذلك الرباط أقوى من أي رباط آخر. ربما فطن إلى ذلك أخيرًا.

أنهى عثمان ورجاله الصلاة. أخذ بعضًا من الملتوت وفطير العسل والجميز وشراب الحلبة وتوجه نحو بخاتي. ما أن وصل موضعه حتى جلس ووضع الطعام أمامه وهمس:

– لابد من أنكَ جائع. هيا نأكل سويًا!

ابتسم بخاتي وهو ينظر للطعام فأخذ حصته وبدأ بقراءة صلاته، وما أن انتهى حتى صلّب على صدره وبدأ بالأكل بينما تابعه عثمان الذي انتظر انتهاءه من صلاته فتلا البسملة بصوت خافت ثم بدأ بتناول حصته من الطعام هو أيضًا.

انتهى الرجلان من تناول الطعام فعاد عثمان بنظره صوب الرجل الغريب فوجده جالسًا هو الآخر يتناول طعامه. انتظر حتى أنهى طعامه فنهض من مكانه متوجهًا صوبه، وما أن وصل حتى طلب منه السماح بالجلوس فرحب به الرجل. تبادلًا الحديث قليلًا عن وضع الفسطاط وخبر الوالي. تابعهما بخاتي بشغف ثم نهض لينضم إليهما.

ما أن اقترب من مجلسهما حتى سمع عثمان يقول:

– لقد خرجنا جميعًا من كورتنا صوب بشمور، وفي تلك الرحلة وجدت

صديقًا مخلصًا اسمه بخاتي. وضع كفه في كفي وأنقذ حياتي من الموت. أنست به واتخذته خليلًا ورفيقًا. على الرغم من اختلاف الملّة إلا أن الرابط بيننا أقوى فنحن أبناء هذه الأرض.

ابتسم بخاتي مما سمع ونظر صوب الرجل الغريب الذي انتبه لوجوده فرفع رأسه. لاحظ عثمان ذلك فنظر خلفه ليجد بخاتي وعلى وجهه ابتسامة فأشار إليه بالجلوس ففعل.

عاد عثمان لينظر للغريب واستطرد قائلًا:

– لقد توالت على هذه الأرض المصاعب. لم تنكسر لأن الله حفظها برعايته، وستبقى إلى يوم الساعة صامدة في وجه الظلم بثورة عيالها. بعدما تفشى القهر والفقر في جسد العامة وجب علينا رفض ذلك الظلم لهذا عزمنا على السير نحو بشمور، فهل تذهب معنا؟

نظر لهما الرجل قبل أن يقول:

– وهل لديكم خطة لدخول الأرض الموحلة؟ الأمر ليس بتلك السهولة.

باغته بخاتي بالرد وقال:

– سنحاول التسلل ليلًا.

ابتسم الرجل ثم نهض من مجلسه ونظر لبخاتي وقال:

– يا لك من طيب. لو عمدتم إلى ذلك لانتهى أمركم. التسلل إلى بشمور موت يا عزيز. الطرق هناك وعرة ضيقة، تحيطها المياه من كل اتجاه. يلزمكم دليل يتقدم مسيرتكم فبدونه أنتم هالكون. ما بين الطريق الوعر وجنود الأفشين ورجال بشمور الغلاظ، موتكم لا محالة.

تركهما خلفه في حالة تعجب مما قال. لقد تخيل الرجلان أن عبور تلك الأرض سهل. حينها عرفا سبب فشل الأفشين في الدخول إلى هناك، صعوبة الأرض كانت عائقًا كبيرًا فمن حاول التسلل انزلقت قدماه في الوحل والمستنقعات فهلك. ذلك خلّف في صدريهما بعض الخيبة إلى أن استدار الغريب وابتسم لهما قائلًا:

– لكننا سندخل بشمور. يبدو أن الربّ رتب ذلك اللقاء ليصبح معكم رجل نشأ في تلك الأرض ويعرف جيدًا مسالكها. سأكون دليلكم في تلك الرحلة.
نهض الرجلان بسرعة واتجها صوب الغريب وعلى وجهيهما ابتسامة عريضة.
لقد رتب القدر لهم تلك الجَمعة ليدخلوا الأرض الوعرة.

الفصل الخامس عشر

الطريق إلى الأرض المنشودة، بشمور.

كانت الأرض المحيطة تعج بالكثير من الأمور فرجال العباسيّ انتشروا في كافة الربوع محاولين الوصول إلى من يدلهم على طريق الدخول إلى تلك الأرض دون فائدة فعمدوا على أعمال العنف والترهيب حتى يبتعد الناس عن تلك الكورة.

قبائل قيس واليمانية زادت ثورتهم في الحوف الشرقي حتى بلغ الأمر أشده شمال البلاد بخبر موت عبدوس الفهري فمنذ قدوم العباسي إلى تلك الأرض وقبائل العرب ليسوا بمأمن. لقد أرسل عليهم هارون الرشيد جيشًا من بعد عجز الوالي إسحاق بن علي العباسي آنذاك فظهر عليهم ذلك الجيش الذي أرهبهم فدفعوا خراجهم كله. بعدها أرسل الوالي رجالًا يقيسون الأرض فأنقصوا منه مقدار أصبعين مما زاد من غضب قبائل القيسية فعادوا لإشعال الفتن. منذ ذلك الحين لم تهدأ الأرض وشربت ما يكفي من الدم فدخل بعض القبط الاسلام حتى يُعفَوا من الجزية، وهجر البعض الأرض لخدمة الحجاج في طريق سفرهم للحجاز عبر الحوف الشرقي فقلت الزراعة، وساد الجوع الذي غلب البطون حتى أكل الناس الجيفة وانتهى الأمر أن أكل بعضهم لحم بعض، دون أن يرحم الولاة والمحتسبين ضعف رعاياهم، فكان الخراب ينهش كل باب.

مرّت الرحلة جنوب منية سمنود، فسمعوا خبرًا عن فتنة أشعلها بعض

القساوسة الذين وفدوا إليها ودخلوا بيعة فيها. حتى وقت القداس الإلهي

أضاف أولئك القساوسة في الاعتراف الأخير كلامًا كان نصّه: « المحيي كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحيي»، مما أثار غضب قساوسة البيعة فقاموا عليهم حتى كادوا يفتكون بهم فتكًا فاتخذوا طريق جنوب تلك البلدة مما جعل رحلتهم تطول بعض الشيء.

نظر جندي إلى بخاتي وقال:

– فليرحمنا الرب يا بخاتي! الفتن قد طالت حتى القبط بعضهم مع بعض. كيف سنعبر هذه الأيام؟ ليرحمنا السيد ويحملنا على كتفه إلى طريق الخلاص!

لم ينظر له بخاتي وأكمل النظر صوب الطريق الخالي من البشر لكنه ردّ قائلا:

– الأمر ليس بالجديد يا جندي. منذ زمن ليس بالقريب بدأ بعض رهبان الأديرة يتلفظون بكلمات تعود للطمث القديم. إنها لأمور في عقولهم تخدم مصالح الملكانيين فقد بدأها هرقل الرومي ما قبل دخول العرب بلادنا فوضع تلك القيم الرذيلة في عقولهم، وأرغم الأقباط التاوضوسيين في ذلك الوقت عليها حتى قدوم عمرو وطرده ثم أعاد لنا الأنبا مرقس لتعود معه كلمة اليعاقبة.

استمع عثمان لذلك الحديث دون أن يعقب عليه. لم يشأ إقحام لسانه بينهما فهما يتحدثان في أمور دينهما وما يحدث. اكتفى بمتابعتهما دون النظر. ما أن عبر الطريق بعيدًا عن سمنود حتى طلب من رجاله النزول للصلاة وتناول شيء حتى يكملوا الطريق إلى بشمور دون توقف.

استجابوا لطلبه وترجلوا، وكالعادة انشغل قسم بالطعام وقسم بالصلاة أما بخاتي فقد ذهب لمكان منعزل جلس فيه وحيدًا. لم يتبعه جندي فقد جلس يلعب في الأرض ويرسم عليها بعصاة صغيرة لكنه كان ينظر من بعيد بين الحين والحين صوب بخاتي الذي تعلقت عيناه بالسماء. كان يحاول شق الغيوم ليرى ما خلفها فقد شارفت الشمس على الزوال. كان عليهم اجتياز الأريسية قبل الغروب ليكونوا بذلك قد وصلوا الأرض الموحلة لكن تبقى لديهم عقبة واحدة، عليهم اجتياز الطريق دون أن يسمع حسيسهم جنود الأفشين، لهذا قصد عثمان الوصول ليلاً ودخول بشمور عبر ترنيط قبل الفجر.

انتهى عثمان ورجاله من الصلاة وبدأ كل منهم بتناول بعض الطعام. كالعادة تقدم عثمان بطعامه نحو بخاتي الذي لا يزال غارقًا في تفكيره، وما أن وصل إليه حتى قدم له الطعام ثم عاد أدراجه.

نهض بخاتي حينما فعل عثمان ذلك. كانت تلك المرة الأولى منذ بداية تلك الرحلة التي لم يجلس فيها معه للطعام. ربما حدث شيء أو تحدث بشيء أغضبه. أراد استبيان السبب فأمسك يده قال:

– إنها المرة الأولى التي تتركني فيها وتذهب وقت الطعام. ما الأمر؟

استدار عثمان لينظر إلى بخاتي فكانت على وجهه نظرة حزينة. ببساطة استطاع أن يميزها على وجه ذلك الرجل فسارع بسؤاله:

– لِمَ الحزن يعتصر وجهك الطيب يا شيخ؟ هل صدر مني فعل أو قول أحزنك؟

تنهد عثمان بمرارة ثم أجاب عن سؤال بخاتي قائلًا:

– أنت رفيق جيد، شعرت معك بالود والراحة كثيرًا. على الرغم من أن كلّا منا على ملّة لكن جمعنا الطين والمولد. نحن أهل واحد من نسل واحد. نتشارك أرضًا واحدة لكن ميزنا الذين انشغلوا بأهوائهم ومصالحهم، من حرّفوا الإسلام وظلموا بعضكم. لم يدخل الإسلام مصر ليكون جابيًا لكن دخل هاديًا لدين الله واتباع رسوله خاتم النبيين، بالتنوير والحكمة وإظهار الفضيلة والمودة، ومن كفر فعليه ما عليه ويبقى الدين لله والوطن لأهله لا لمن سلبه عنوة.

توقف عن الكلام ونظر صوب السماء وتنفس مرة أخرى ثم عاد ليقول:

– الدخول إلى بشمور أمر كبير. الجنود في كل مكان وربما نموت في تلك الأرض. أنا لم أرهب الموت في هذه الحياة لكن ما يحزنني الآن أني لم أترك في هذه الحياة ولد، ولو كان لي لرجوت أن يكون مثلك يا عزيز. قالها ونزلت دموعه واضحة.. لأول مرة.

***

زالت الشمس وبدأ الليل زحفه في الأفق، والرجال في حالة ترقب لكلمة عثمان الذي جلس وحده يتابع غروب الشمس دون أن يلتفت. كان لسانه يتحرك بتمتمة غير مسموعة أما بخاتي فقد اتخذ موضعًا موازيًا لعثمان وكان ينظر إليه بين الحين والحين. كانت كلمات عثمان الأخيرة قد غُرست في قلبه. لم تتعدَّ تلك الصحبة أيامًا قليلة فتعجب كثيرًا كيف وصل ترابطهما لتلك الدرجة! كيف وجد كل منهما الراحة في كتف رفيقه! الكلمات والنظرات كانت تحمل الكثير من المعاني، وشهدت عليهم المواقف بتصافح الكفّين، بالكتف مع الكتف مع رجل مسلم لكنه جمع القليل من شتاته في كنف ذلك الرجل بعدما تعلم أن الدين لله وحده، والوطن لأهله جميعًا.

نهض عثمان فجأة من مجلسه وهو ينطق الشهادتين ثم نظر حوله مع آخر بصيص ضوء في نهار ذلك اليوم. أشار لأحد رجاله فهرع إليه. تحدث معه قليلًا ثم أومأ الرجل برأسه بحركة توضح تفهّمه لما قال عثمان ثم انصرف صوب باقي الرجال، يطلب منهم الاسراع في جمع أغراضهم استعدادًا للرحيل.نهض بخاتي متجهًا صوب الرجال، يجمع معهم الأغراض فتبعه جنديّ يساعدهم قبل غياب الضوء. دقائق قليلة وأصبح الركب مستعدًا للمغادرة بعد الصلاة فعاد بخاتي ليجلس وحده وبدأ بالتمتمة هو الآخر بصوت منخفض قائلًا:

– (وَحِينَ تَدْخُلُونَ الْبَيْتَ سَلِّمُوا عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ مُسْتَحِقًّا فَلْيَأْتِ سَلاَمُكُمْ عَلَيْهِ، وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا فَلْيَرْجِعْ سَلاَمُكُمْ إِلَيْكُمْ).[5] .ما أن انتهى حتى صلّب على صدره ونظر صوب السماء ثم نظر صوب عثمان الذي كاد ينهي صلاته فبدأ يخطو متمهلًا صوب الركب حتى بلغه. نظر صوب عثمان الذي لا تزال على وجهه علامات الحزن لكن لم يذهب نحوه.

٥- (إنجيل متى ١٠: ١٣؛ إنجيل لوقا ١٠: ٥، ٦)

قبل أن يهم بالركوب سمع الشيخ يقول:
– يا رجال! لقد خرجنا في طريق اجتمعنا عليه دون أن نعلم نهايته. تركنا ما لنا وما علينا من بعد ظلم حتى نقهره. عبرنا البلاد ورأينا ما حل بها وسمعنا خبرها مما زادنا عزمًا.
نظر صوب بخاتي وجندي المتجاورين واستطرد:
– نحن أبناء وطن واحد، مسلميه وقبطه. ليس لنا من أمر ديننا إلا ابتغاء وجه الله ورضاه وطلب رحمته لكن ستبقى كفّ الودّ موصولة ما حيينا، والله يجازي من يشاء ويغفر. فلتكن تلك نصيحتي الأخيرة إليكم. كونوا عونًا وسندًا في نصرة وطنكم وأخلصوا النية لله فنحن على أعتاب طريق مجهول، ربما نعود منه جميعًا!
سكت وهو ينظر صوب السماء وأكمل بحزن:
– أو بعضنا، وربما لن نعود منه أحياءً فتسامحوا! ليغفر لي من أخطأت بحقه منكم، ولتكن قلوبكم صافية! ومن كتب له الله العودة من بشمور فلينقل ما تعلمه في تلك الرحلة خاصة ومن حياته عامة للجمع، وليعمل على مدّ كفّ العون للناس أجمعين باختلاف ملتهم! هذه آخر كلماتي لكم في وقفتنا الأخيرة. فلنذهب الآن في أمان الله!
لحظات من الصمت بعد أن أتم عثمان كلماته الأخيرة لكن مشاعر رجال عثمان قطعت عنق الصمت، أولئك الذين عهدوه أبًا وصديقًا وتعلموا منه الكثير من قبل تلك الرحلة ما جعلهم يذهبون للموت معه، منهم من دعا له بالعمر المديد ومنهم من حزن بسبب كلماته فذهب نحوه وجثا على الأرض أمامه مما أغضبه فرفعهم، ومنهم من سدّ حزنُه حنجرتَه لتقف الكلمات خلف سدّ الحزن المنيع واكتفى بتهريب الدمع أما بخاتي فوقف ينظر له، يتابع حبّ رجاله له ثم فجأة قال بصوت عالي لفت انتباه كل من حوله:
– أنت لم تجبر أحد منا على الذهاب معك. لقد أخذنا منك القوة وحسن

المعاملة فكنت خيرنا. كن على ثقة أننا جميعًا يد واحدة وسنضحي بحياتنا من أجل وطننا ومن أجل من جعل منا أخوة.
ذهب نحوه بسرعة واحتضنه بقوة وبكى.
انتبه عثمان الى أن الوقت يمضي وأن الرحلة لا تزال طويلة فطبع قبلة على رأس بخاتي وقال له:
– هيا يا ولدي! علينا الذهاب في سترة الليل.
تحرك بخاتي بثقل يجر قدميه نحو ركبه دون أن ينظر خلفه، وما أن وصل حتى نظر صوب عثمان فوجده يحث رجاله على الإسراع فتقدم الرجال ومن أمامهم جندي ورجل آخر، لتبدأ نهاية الرحلة بالوصول إلى بشمور.

***

في عتمة الليل سلكوا الطريق صوب بشمور بحذر. تلك الأرض مختلفة، تربتها ما بين طينية في بقاع وبقاع أخرى تكون رملية. كان عليهم السير ليلًا ليتجنبوا جنود العباسيّ وكانت أيضًا مخاطرة كبيرة فتلك الأرض غير آمنة لكن القدر قد ساق لهم جندي، الدليل ليتقدم الرحلة.

كان يحمل في يده شعلة من نيران يفحص بها الطريق، يحاول تجنب البقاع الموحلة وكذلك البعد عن الدخول وسط الرمال البيضاء التي إن دخلوها تاه منهم الطريق وربما غرقوا في أحد بحورها. كانت الريح خفيفة تأتي من الشرق وتحمل رائحة غريبة ميزها الرجال فهي رائحة جيفة. لا بد أنها لوحوش نافقة. عندها طلب عثمان من آخر رجال الركب أن يشعل موقدًا حتى يأمن غدر تلك الوحوش، إن كان منها شيء على مقربة فيخاف ويبتعد.

طوال الطريق لم ينطق أحدهم بكلمة واحدة، وظلت تلك الرائحة النتنة تلاحقهم. فجأة أشار لهم جندي بالتوقف ثم ترجل عن بغله وتقدم بحذر من شيء ممد على الأرض. حاول تفحصه بقدمه. قلبه على وجهه ليجده جسد رجل ميت فأشار لهم بالترجل ففعلوا.

هرع إليه عثمان ومن خلفه بخاتي. نظروا لتلك الجيفة فوجدوا أنها لرجل عليه أثار عضّات في كتفه وفخذه. يبدو أنه نزف حتى الموت. اقترب عثمان منه واضعًا خرقة على أنفه من أثر رائحة الجيفة فلاحظ شيئًا غريبًا، آثار النهش والعض غريبة ولا تشبه أسنان أي من وحوش الأرض. ما أثار ريبته أكثر، لماذا لم يلتهمه كله واكتفى بتلك القطع الصغيرة؟ كما أنه من المعروف أن تلك الوحوش تهجم جماعات، ولو كانت كذلك لالتهمته كله.

فرفع رأسه ونظر صوب بخاتي وقال:

– أخشى ما أخشاه أن تكون تلك العضات لأسنان آدمية.

اقترب بخاتي يتفحص بسرعة ورفع رأسه لينظر إلى عثمان وهو يسد أنفه بينما عقله عاد للخلف. لقد مرّ عليه خبر من ذلك وقتما كان في بلبيس، وسمعه

من أحد المارة أيضًا. كذلك حينما التقى عثمان بالرحالة تحدثوا عن ذلك. لقد وصل الجوع حده بالعامة حدّ نهش لحم بعضهم البعض فربما تلك الرائحة ليست لوحوش الأرض وحيوانات نافقة فقط بل من الممكن أن تكون لجثث بشر.

أمسكه عثمان من كتفه يشده للخلف ويوقظه أيضًا من حالة التيه التي ألمت به بعدما رأى ثم أشار لبقية الرجال بالركوب للمضي قُدمًا. تحرك بخاتي معه دونما كلمة وعقله توقف تائهًا بين الأسئلة. إلى متى سيظل الظلم يأكل الحياة؟ لماذا لا يرحم من حكم فيهم ضعفهم؟ هل سينتهي الظلم يومًا أم سيظل حتى اليوم الموعود؟

لم يهتدِ عقله لإجابة شافية، وظل يجر قدميه خلف أمل الوصول كدابته التي تتجه نحو مصير مجهول. لقد بقي القليل ويصل الركب إلى الأرض المنشودة، ولا يدري أحد منهم شيئًا عن مصير تلك الرحلة.

*****

اقترب الليل من انتصافه ولا زال الركب يسعى للوصول قُبيل الفجر، بحذر شديد خوفًا من اكتشاف أمرهم أو أن يلحظ أحد رجال العباسي لهيب المشاعل حتى بدأت خطواتهم تقترب من أحراش محلة بشمور، حيث الوحل والأرض الطينية المشبعة فطلب منهم جندي الاقتراب والترجل عن دوابهم ثم السير في خط واحد بعضهم خلف بعض متقاربين. تلك الأرض ليست آمنة ولو انزلقت قدم أحدهم ونزل فيها لغاص وهلك.

بحذر شديد تحسس الرجال خطاهم في الأرض الموحلة حيث بصيص ضوء خفيف من أثر المشاعل. حتى القمر اختفى خلف الغيوم. ربما خشي مطالعة سفك الدم على تلك الأرض. كان جيش الأفشين على مشارف بشمور، يحاول عبور أحراشها المنيعة وطرقها غير المأمونة للنيل من المتمردين لكنهم عجزوا عن ذلك أيامًا طوالًا، وحين يحل الليل يخرج عليهم البشموريين عبر طرق لا يعلمها سواهم فيعملوا فيهم القتل والسلب ثم يعودوا أدراجهم، مما زاد من اشتغال غضب قائد الجيش ومن بعده المأمون.

لم يجد المأمون بدّا من إثارَة الفتن فتعمد التفرقة ما بين الطوائف حتى يترك المناهضون ثورتهم ويعود الضعاف أدراجهم فانشغل ومن معه في البحث عن دليل منهم ليدخل به تلك الأرض ويقتل ثورتهم، ورسائل بيعة العذراء في قصر الشمع لا زالت تتوافد عليهم، تحثهم على وقف القتال ليأمنوا على حياتهم ويحفظوا بيتوهم وعيالهم لكن دون فائدة.

ما أن وصل المأمون الفسطاط حتى أمر بعبدوس الفهري فأحضروه. استمع لخبره وأقواله فوجد منها ما حمل عليه من سخط فأمر برأسه فضربوا رأسه أمام بيت المأمون ليكون عبرة لغيره، ولتكون تلك رسالة من المأمون لمن ثار عليه عامة وللبشموريين خاصة.

توقف جندي فجأة وطلب من الرجال التزام الصمت فقد شعر بشيء مريب. حاول التقدم بحذر يشق الأحراش. نظر بخاتي بريبة لما يحدث لكن بعد مرور بضع دقائق عاد جندي ليقول لهم:

– هناك بعض من رجال بشمور قد خرجوا للصيد، مروا على مقربة من هنا ويبدو عليهم حالة التحفز. انتبهوا فربما يصادفنا بعض من رجال العباسي أيضًا.

طلب عثمان من رجاله توخي الحذر والتزام الهدوء وكذا البقاء على مقربة فربما يجدون ما لم يحسبوا حسابه. تلك البقعة ليست آمنة ووجب عليهم عبورها أيضًا لكن كما قالوا، في العجلة الندامة وفي التأني السلامة.

لكن بخاتي تخطى بعض الرجال ليصل إلى عثمان. وضع يده على كتفه وقال له:

– سأذهب أنا وجندي في أثر رجال البشموريين. أظنها من صروف القدر فنحن بحاجة لمن يُدخلنا معه هناك. هل تعطِنا الرخصة؟

نظر له عثمان على ضوء المشعل الخافت بودّ ولم ينطق. انتابه الخوف على بخاتي من تلك الخطوة ومجابهة البشموريين فهم رجال شداد غلاظ يصعب استمالتهم لكنه تذكر أن بخاتي قبطي مثلهم. سيتحدث معهم بلهجة أخميمية قبطية فهو يجيدها. جندي أيضًا يجيد لهجتهم لأنه قريب من تلك الأرض وكما حدّثهم فقد دخلها كثيرًا لجلب أوراق البردي وأحيانًا الأسماك التي كان يعمل على تمليحها وبيعها للأقباط.

وضع عثمان يده على كتف بخاتي وقال قبل أن يعطيه الرخصة:

– عليك أنت أن تحذر ولا تترك كتف جندي! لا تكن أهوجًا جلفًا وتحدث معهم بلين!

تقدم بخاتي بحذر مع جندي فذهبوا خلف رجال بشمور.

لم يغب القلق عن ذهن عثمان. كان يخشى اندفاعه في مواجهة أولئك الغلاظ وكلما مر عليه الوقت تسرب القلق إلى قلبه أكثر فأكثر حتى كاد يفتك به. نظر إلى السماء وقال بصوت مكتوم:

– اللهم كُن لهما عونًا وردّهما سالمين!

رحلة كانت أيامها معدودة. رحلة هروب من الظلم نحو بقعة ربما يقهروا فيها الظلم أو يُكتب لهم فيها الخلاص، خرج كل أطرافها من بيته فارًّا من ذنب اقترفه بفعل ممارسات العباسيين، ولم يحسب لها أحدهم حسابًا لكنها كانت أقدارًا ليجتمع أطراف تلك الرحلة، لتجمع مسلمًا وقبطيًا، يمدّ فيها كلاهما كفه للآخر بعدما كان ذلك الكف مبتورًا.

سعى عثمان لكسب بخاتي فاتخذه خليلًا ورفعه لمنزلة الابن أما بخاتي فقد شعر بأنه وجد من يرشده، من يربت على كتفه حينما كان حزنه يقفز على قلبه دون رحمة. شعر داخله أنه من الخطأ إلصاق ما فعله العباسيون بالإسلام فهم ليسوا إلا فئة قدموا لهذه البلاد غازين طامعين فعلوا بها ما فعلوا، لكنهم بشر أساء كل حاكم منهم لرعيته ولا يجوز ظلم دينه بفعله.

الخلافة تحتاج إلى قوة حربية للحفاظ على امتدادها والقوة الحربية تحتاج إلى رجال دين يمررون تجاوزاتها ويفتحون طريقًا تحت ستار ديني يبيح أفعالهم. هكذا تسير الخلافة على ساقين، ساق حربية وساق كهنوتية دينية فتستطيع

بهما السير نحو استمرارها فوق أعناق مناهضيها، ولا بأس ببعض القمع والأرواح أحيانًا.

عاد عثمان لزمن بعيد، يتذكر ما قصه عليه معلمه حمزة من خبر الخليفة أبي جعفر المنصور الذي قام بتوطيد الدولة العباسية وإرساء ملامحها الدينية فهو الذي بنى بغداد، وهو القائل في خطبته (أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أحكمكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه.)[٦]

عزّز بذلك قوتها الحربية بقوة كهنوتية دينية لها الآلاف من الأتباع، ومنذ ذلك الحين اتبعه كل من خلفه في نهجه فكل خليفة سار على ساقين، قوة حربية وقوة دينية. أساء بعضهم الأحكام وصاغوا أحكامهم بما أرهق رعاياهم فبالغوا في فرض الجزية، وزاد الخراج فهجر أغلب الفلاحين الأرض واعتنق بعض القبط الاسلام كما عمد بعضهم إلى الكنيسة ليتم اعفاءهم من الجزية حتى مد الجوع جناحه فوق بيوتهم وكلما رفع العامة رؤوسهم من فرط الظلم؛ خرج عليهم رجال الدين بالدعاء للحاكم وتعظيم أفعاله وحثّ الناس على اتباعه والكفّ عن مناهضته بإطاعة أولي الأمر من بعد طاعة الله.

مرّ الكثير من الأحداث على عقل عثمان لكنه لم يغفل قلقه على بخاتي. لقد مرّ بعض الوقت على ذهابهما مما دفعه لحمل الشعلة من رجاله والتحرك على الأرض بحذر لينظر خلف الأحراش علّه يتحسس شيئًا من أثره! لكنه قبل أن يتقدم سمع صوت همهمات تقترب نحوهم من ناحية اليمين. أمسك المشل بيسراه ووضع يده اليمنى على غمد سيفه تأهبًا لسحبه وأشار لرجاله بالاستعداد لكن فجأة ظهر عليهم جندي وقال لهم:

٦- (تاريخ الطبري ٩ / ٢٩٧).

– علينا أن نذهب من هنا بسرعة.

نظر إليه عثمان بقلق وقال له بصوت عالي:

– أين بخاتي؟

سرعان ما أتاه الجواب من خلف جندي. لقد عاد بخاتي ومعه بعض من رجال بشمور، تحدث إليهم بلسان قبطي لم يفهمه عثمان ورجاله ثم قال:

– أنا هنا يا شيخ. علينا الإسراع الآن لندخل بشمور فرجال الأفشين في كل مكان. لقد حان الوقت.

وبالفعل انطلقوا خلف بخاتي ليكتبوا الصفحة الأخيرة من الرحلة.

الفصل السادس عشر

بشمور..

الأرض الوعرة المحاطة بالماء والوحل من كل اتجاه، عندما يعلو منسوب النيل ليغرق الأرض تصبح بشمور جزيرة وسط الأرض ومن الصعب العبور إليها، لذلك لم يستطع جيش الأفشين اجتياز تلك الأرض والعبور للقضاء على الثورة. حتى تعبر ذلك الحصن يجب أن يتقدم الزحفَ دليلٌ على دراية بتلك الأرض، وذلك ما عجز عنه العباسيون حتى اللحظة.

يعود أصل أهل بشمور إلى اليونانيين فأجدادهم الأوائل كانوا من سلالة الإسكندر. اختلطوا بقبط بشمور وتزاوجوا من أهلها فغلبت عليهم سمات القوة والغلظة، وعلى الرغم من اشتغالهم بالزراعة وصيد الأسماك إلا أن لهم باعًا في الكرّ والفرّ. لقد ناصروا العباسيين بادئ الأمر وساعدوهم في القضاء على الأمويين في مصر بقيادة البشموري مينا بن بقيرة لكن اليوم انقلبت الأرض ليصبح أهل بشمور مناهضين لحلفاء الأمس لتبدأ ثورتهم الثانية على خلافة العباسيين.

تقدم بخاتي وجندي الجمع ومن أمامهم رجال بشمور ليشقّوا الطريق الموحلة ما بين أرض سبخة موحلة وأخرى رملية بيضاء غير مأمونة، لو انزلقت قدم فيها ما عادت منها. كان رجال المقدمة يتحدثون بلسان بشموري عجز عن فهمه عثمان ورجاله، وكان منهم رجلًا يتحدث العربية فكان يتبادل وبخاتي بعض كلمات أما جندي فكان منسجمًا مع رجال بشمور، يبادلهم الحديث

بلسانهم وبعض الأحيان يتحدث القبطية مع بخاتي.

في عتمة الليل قطعوا طريقًا وعرة وقد ساروا في خط واحد ممسكين أيدي بعضهم حتى لا ينزلق أحدهم. قُبيل الفجر ومع آخر محطات العتمة، تجاوزت الرحلة الأرض الموحلة حتى وصلت إلى النجوم حيث تجمع البشموريين. انفصل عنهم رجلان وذهبا نحو أحد البيوت الطينية ولبثا فيه بضع دقائق.

تفحصت عينا عثمان المنظر من حوله. كانت النجوم بدائية فلا أثر فيها لعمارة وكانت تلك طبيعة بشمور كلها لا النجوم فحسب. إنهم قوم امتهنوا الزراعة وصيد الأسماك، وانشغلوا بأوراق البردي وتمليح ما يجود به الماء عليهم من سمك، ومع أضواء المشاعل القليلة لمح على مقربة مبنى هو الأطول في تلك البلدة وله برج في نهايته صليب خشبي بارز، ميزه عثمان في تلك العتمة وكانت تلك بيعة البشموريين. على مداخلها المشاعل وبابها مفتوح. تقدم عثمان يمشي في المكان ينظر حوله في حين لمحه بخاتي فتبعه بهدوء، وما أن اقترب منه حتى وقف خلفه وقال:

– لقد وصلنا حيث نريد بأمان. نسأل الرب النجاة! لقد سمعت منهم ما لا يسر الخاطر.

التفت عثمان صوبه وعلامات الدهشة تملأ وجهه. استطرد بخاتي بحزن قائلًا:

– لقد عمد المأمون إلى الفتنة لتفرقة جمع الثوار. بعدما حضر إلى مصر مع أنبا أنطاكيا الذي اجتمع بالأنبا يوساب وكتبا لأهل بشمور مكتوبهما الأخير لحثّهم على كفّ القتال. بث المأمون الرعب في قلبوهم وتوعدهم بالقتل والحرق فكانت رسالته الأخيرة تحمل من الوعيد حدّه ومن الخوف ما غلب شجاعة الكثيرين فتركوا بشمور خوفًا. ربما نحن آخر من يأتي إلى هنا.

مما سمعت أيضًا أن الأفشين بات على مقربة من دخول ترنيط ومن بعدها النجوم. جيشه في الأريسية منذ أمس.

بُهت عثمان مما سمع، ليس خوفًا لكنه شعر بضعف عزيمة الأبطال من بعد تلك الفتنة. قبل أن ينطق برد على ما سمع، سبقه جندي ليخبرهم أن قادة البشامرة يرحبون بهم وقد أعدوا لهم نزلًا للمبيت الليلة، وفي الصباح سيجتمعون ليرحبوا بهم مرة أخرى.

تبعه عثمان وبخاتي دون أن يتحدثا ومن خلفه باقي رجاله. لاحظوا وجود بعض الرجال على طرفي الطريق وقد تسلحوا بالمقاليع والتروس، وبعضهم بالعصي والقسي وعلى رؤوسهم خُوَذ من بوص. على الرغم من برودة الجو ليلًا إلا أن صدورهم كانت عارية وبدت عليهم علامات التحفز للهجوم لولا وجود بعض رجالهم كانوا يتقدمون السير. ربما تلك الحالة احتلت قلوبهم بعدما غادرهم البعض وربما هي طبيعتهم في الأصل.

وصلوا حيث مكان المبيت وما أن دخلوا حتى طلب عثمان بعض الماء للوضوء وطلب من رجاله الاستعداد للصلاة أما بخاتي فقد اختلى بنفسه يتفقد البيت الصغير. كان من الطين مسقوف ببعض سدد القش والخوص، له شباك صغير قرب الباب وعلى جدرانه ثلاثة قناديل موزعة على أطراف ثلاثة عدا طرف الباب. في نهاية البيت مكان صغير منسدلة عليه خرقة، لما اقترب منه تبين أنه بيت الراحة.

جلس على أرض الغرفة مستندًا إلى الحائط يراقب عثمان ورجاله ثم سرح بأفكاره ليعود إلى بلبيس. أخذه الحنين إلى أرضه وداره، اشتاق لناسه ومن عاش بينهم سنوات عمره، وكاد قلبه ينفطر حينما توقفت ذاكرته عند بولخاريا

وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

اغرورقت عيناه بالدموع فسقطت قطرة منها على كفه، وقبل أن يذهب بعينيه إلى الأرض التفت فجأة إلى يساره حيث الباب ليجد بولخاريا واقفة على مقربة منه. نهض بسرعة وتوجه صوبها لكنها اختفت خلف الباب. أسرع بفتح الباب علّه يجدها خارجه وبالفعل كانت تقف على مقربة. ذهب بهدوء صوبها حيث كان الفجر يرسم خيوطه الأولى على السماء فوجدها تبتسم وقالت:

– لقد وصلنا أخيرًا، وقبل أن تسترح من عناء الرحلة افتقدت دارك وأهلك لكن لماذا تفتقد زوجتك التي لم تفارق ظلك لحظة؟

نظر بحاتي إليها ثم طأطأ رأسه وقال:

– افتقد الواقع الملموس، تلك الليال الباردة ونحن نتسامر جنبًا إلى جنب، ذلك الطعام الذي لم أتذوق مثله حتى من أمي. أنتِ الوطن الذي لم أستطع الحفاظ عليه فسلبه مني الغاصبون. أنت الأرض التي ذابت بها روحي ولكنني مسجون في مكان بعيد لا أستطيع حرثها. لقد بات الأمر حلمًا يا بولخاريا.

ساد الصمت قليلًا فرفع عينيه ظنّا منه أنها غابت أو أنه كان يتخيل لكنه وجدها تقف صامتة وقد غابت عنها الابتسامة وقالت:

– لا تحزن! أنا لم أبرح قلبك، ولا يزال حكمي لك. الأرض لا تموت يا عزيز القلب. سنعود لنلتقي فلا تحزن! حتى تلك اللحظة، انتبه ولا تبرح الشيخ الطيب.

غابت فهرع حيث كانت تقف علّه يوقفها لكنها اختفت. التفت حول نفسه

بحزن شديد ربما يتحسس طيفها في مكان آخر لكنه انتفض حينما وجد عثمان يقف خلفه تمامًا ورجع خطوة للخلف. اقترب منه عثمان ليضع كفّه على كتفه وقال:

– اهدأ ولا تخف! أظنك كنت غارقًا مع طيفك ولم تنتبه لي.

كانت أنفاسه تتسارع ولكنه حينما سمع كلمات عثمان أجهش بالبكاء فجأة ثم احتضن عثمان للمرة الأولى وهو يبكي قائلًا:

– لم أعد أحتمل ذلك الفقد. لقد أتيت هنا للثأر منهم لكن الآن أنا هنا لأموت. أريد أن أذهب إليها يا عثمان، ما عدت أتحمّل.

ربت عثمان على ظهره وهو يحتضن جسده بحنان كأب. كانت لحظة غريبة انهار فيها بحاتي أمامه فأخذ يحاول أن يُهدِئ من حزنه لكنه لم يستمع لكلام الشيخ. لقد ذهب بروحه خلف بولخاريا والجسد تهاوى على كتفه ليسحبه ببطء إلى الداخل.

***

لم يدر بخاتي بما حدث ليلة أمس. الشمس قاربت على احتلال منتصف السماء. فتح عينيه ليجد أحد رجال عثمان جالسًا يراقبه فما أن رفع رأسه حتى سأل عنه فأجابه الرجل أنه في الخارج مع الرجال ينتظر أحد البشموريين ليتحدث معه. نهض بتثاقل يلبس خفه وببطء اتجه صوب الباب ليخرج.

تحرك صوب الباب وكأن على عاتقه حمل من صخر ولا يدري ما السبب! فتح الباب ليجد عثمان وسط بعض من رجاله ومعه جندي. قد اجتمعوا ببعض رجال البشموريين وتبادلوا الحديث. اقترب منهم وأخذ يلتقط طرف الحوار ليسمع أحد البشموريين ينطق بلسان عربي يقصّ عليه بداية الأمر.

أهل الاقليم يمتهنون الصيد وزراعة البردي، على الرغم من غلظتهم وشدتهم إلا أنهم قوم يعيشون بسلام. أرهقتهم أفعال الولاة والمحتسبين وفرض ما يزيد عن طاقتهم من جزية حتى وصل بهم الحال لطرد المحتسبين ورفض الانصياع لأوامر الحاكم فكانت تلك شرارة الثورة.

حزن بخاتي لما سمع واقترب منهم أكثر ليقف إلى جوار عثمان الذي انتبه له ونظر نحوه دون أن يعقب حتى بترحيب، والرجل يكمل ما حدث لهم. كيف أُرسل الأنبا يوساب من قصر الشمع لحثهم على إطاعة الحاكم، وكيف عاملوا أولئك الرسل بالحسنى في بادئ الأمر حتى طفح الكيل وأصبحت تلك الرسائل تؤثر في البعض فتركوا الأرض خوفًا على حياتهم، وبعدها صاروا يعاملون كل من حضر إليهم بمكتوب بقسوة إلى حدّ تجريدهم من ملابسهم وطردهم من بشمور دون ملبس اعتراضًا منهم على ما يحملوه وردّا بالرفض على ما أرسلته البيعة علّ ذلك يغير موقفهم بدعمهم أو تركهم لمصيرهم.

شعر عثمان بالأسى لما سمع. أخبر الرجل المتحدث أن ينقل للحضور عن لسانه دعمه هو ورجاله وأنهم قد عقدوا العزم على إكمال المسيرة معهم حتى

وإن كان حتفهم هو نهاية تلك الرحلة ثم نظر صوب بخاتي وانصرف وحده بعيدًا، ينظر صوب البيعة التي توسطت المكان ثم ابتعد.

شعر بخاتي بغرابة تصرفات عثمان بعد خروجهم من بوصير. تلك الليلة التي أعترف فيها كلاهما بالخطيئة والتي حملت على أجنتها بعض التغيير وأخذت في طياتها البعض أيضًا. راقب بخاتي عثمان وهو يجر قدميه على الأرض بتثاقل، والعجيب أنه لم يذهب خلقه وكأن قدميه قد دُفنتا في الأرض فلا يقوى على الحراك، ولم يدرِ ما سبب تلك الحالة.

نظر صوب البيعة وبتثاقل ذهب نحوها وما أن وصل بابها حتى نظر للصليب المعلق على الباب لبضع ثواني ثم دخل البيعة وتقدم صوب الخورس. صلّب على صدره ثم جلس على ركبتيه محنيًا رأسه الى الأرض، وما أن فعل حتى بدأت الدموع تنفجر من عينيه وارتفع نحيبه. مرت على عينيه رحلته الطويلة من الطمث حتى ادعاء الهداية ثم الصلاح مع بولخاريا، حتى وصل لسيل الدم وضياع ما يملك من أهل.

رفع رأسه صوب الصليب وقال:

– أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك ولتكن مشيئتك كما في السماء لتحل رحمتك بنا على الأرض! عظمت ذنوبي وطلبت عفوك. عقابك في الدنيا حلّ بي ولا زلت في طلب للمغفرة أو أن تجعل نهايتي هذه الأرض لأكون معهما، أسبح في السماء.

لم يشعر بخاتي بالوقت فقد سيطرت عليه أحزانه حتى وصلت به لباب مظلم لا يرى فيه وكذلك لا يسمع لكنه فجأة انتبه ليد على كتفه تربت عليها. نظر لأعلى فوجد عثمان الذي كان في طريق عودته من أمام البيعة فسمع

صوت نحيبه فدخل. ما أن لمحه بخاتي حتى نهض وارتمى بين ذراعيه ليكمل نحيبه ولكن هذه المرة بدموع أغزر ونحيب أعلى، وعلى لسانه كلمة واحدة بللتها الدموع:

– أريد أن أذهب إليها.

احتضنه عثمان بشدة ولم يتحدث. أراد فقط أن يشعره بالدعم وتركه ينتحب علّه يرتاح لكنه أكمل على نحو جعل عثمان نفسه يبكي فاحتضنه ووضع رأسه على كتف بخاتي الذي شعر في تلك اللحظة بعثمان هو الآخر يبكي فجذب نفسه من أحضانه لينظر له وهو يمسح دموعه وسأله:

– لماذا تبكي؟ هل أصبحتُ مثيرًا للشفقة إلى هذا الحد؟ ما الذي حدث لك؟

نظر عثمان للأرض وهو يمسح دموعه دون أن يجيب في حين كرر بخاتي سؤاله الأخير ولم يتلقَّ إجابة أيضًا. عاد ليكرر سؤاله عده مرات متتالية وهو يصرخ فلم يجبه ولم يرفع رأسه حتى فأمسك بخاتي بمعصميه وأخذ يرجه كي يجيب عن سؤاله لكنه جذب نفسه من يد بخاتي وهمّ بالانصراف. قبل أن يخطو خطوتين جذبه بخاتي من دبر وتقدم نحوه لينظر في عينيه ممسكًا بكتفيه مرة أخرى وقال له:

– أُنظر إليّ يا عثمان، ما الذي حدث لك؟

رفع رأسه بصعوبة ونظر بانكسار صوب بخاتي الذي ما أن رأى عينيه حتى اقشعر بدنه. لقد حملت تلك النظرة الكثير من الأسى على جناحيها فتركه بخاتي لحظة ثم كرر سؤاله مرات وفجأة احتضنه بقوة.

صوت النحيب ساد الموقف، والدموع أغرقت الأجساد دون أن يشعر

أحدهما بالوقت حتى قطع عثمان ذلك حينما قال:

– كلما رأيتك تبكي وتنتحب على زوجتك أشعر بالألم. تأخذني دموعك إلى الماضي وأعود أجر خيبتي في قدميّ. أنا أكثر من يشعر بألمك لأني أحمل نفس الألم في صدري يا بخاتي.

انفجر بالبكاء بصوت كادت الأرض تنشق من قوته ثم تمالك نفسه وابتعد خطوة عن بخاتي. بدأ يمسح عينيه بطرف ثوبه ثم عاد لينظر له قبل أن يقول:

– ألم الفقد أصعب أنواع الألم المعنوي. يصيب قلبك في عمقه ولم يجدوا له ترياقًا حتى الأن ولن يجدوا فهو ليس بألم عضوي يا بخاتي.

نظر بخاتي نحوه محاولًا فهم ما يقول وهو ينتظر التكملة. لم يُطِل عثمان سكوته حينما استطرد قائلًا:

– لقد فقدت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي، تلك التي جعلت من حياتي قوس قزح من بعد المطر. أحضرت الألوان السبع على شعاع عينيها الدافئتين لتصبح حياتي مختلفة. قتلوها قبل أن نتزوج بأيام بلا ذنب. لم أنسَ ذلك بعدها. ذلك الجرح لم يندمل لكنه عاد ينزف من وقت لقائك، ليس لأنك تحمل جرحًا مثله لكن لأنها كانت أيضًا قبطية.

اندهش بخاتي مما سمع. ربما ما زاد دهشته حينما علم أنها كانت قبطية لكنه انتظر عثمان ليكمل خبره دون أن يقاطع حديثه. التقط عثمان أنفاسه بصعوبة وأكمل قائلًا:

– أحببتها كثيرًا. حينما التقيتها أول مرة كانت تشتري بعض الأقمشة من عندي. لم أرَ الشمس بذلك الجمال من قبل، ولا أدري كيف اخترق سهمها

جلدي السميك ليصيب قلبي ويصيب وتينه. عاد بي الزمن للشباب الغابر لكن لم أتفوه بكلمة واكتفيت بالابتسام والنظر صوبها حتى لاحظت ذلك فابتسمت ثم غادرت.

كان يتحرك صوب باب البيعة وهو يقص على بخاتي قصته حتى خرج فتبعه بخاتي. شعر ببعض التعب فاستدار لبخاتي وأشار له بالجلوس على الأرض ففعل ثم استطرد:

– لم تمر سبعة أيام حتى وجدتها تقف أمامي مرة أخرى، مع العلم أنها لم تبرح خيالي منذ ذهابها في المرة الأولى. كانت تبتسم. نعم، أستطيع أن أقول عمّا رأيته ابتسامة ولكنها كانت عاصفة حملت مع ريحها شيئًا لم أفهمه. لقد تبعثر ثباتي كليًا. أطاح بعمامة الوقار ليقع ذلك الرجل من فوق جواده على بساط الحب الناعم. تقدمت نحوها أرحب أولا ثم حاولت سؤالها كيف أخدمها فتلعثمتُ حتى ضحكت وتركتني وذهبت بينما تلتفت بين حين وآخر، تنظر إلي فتجدني لا زلت كصنم لا حراك له.

خاطبت تلك الكلمات قلب بخاتي الحزين الذي تذكر بدوره زوجته فاغرورقت عيناه مرة أخرى بالدمع لكنه حاول جاهدًا ألا يؤثر على عثمان كي يكمل ما بدأ فسمعه يقول:

– تبدل حالي في ذلك اليوم حتى أن أقرب الناس إليّ لاحظ ذلك فسألني. نطقت بسرعة أسأله عن تلك الفتاة ووصفتها له فضحك وقال ليّ أنها ابنة قيم البيعة فباغته قبطية؟ فأومأ برأسه إيجابًا ثم ذهب وهو يبتسم. كان هناك ما يحركني نحوها وفي اليوم التالي ذهبت صوب البيعة أتحسس من خبرها. فجأة وجدت من يسألني من خلفي قائلًا: «هل تبحث عن شيء؟» فاستدرت بدهشة. لقد كانت هي، وحينما نظرت إليّ ولاحظت ارتباكي ضحكت.

تبادلنا أطراف الحديث وطلبت لقاءها في اليوم التالي وبالفعل استجابت وحضرت. منذ ذلك الحين بدأت الأمور تسير على نحو رائع. كنا نشعر بالسعادة الغامرة، كنا نتحدث عن كل شيء حتى في أمور الدين. كنت أحاول استمالة قبلها وبالفعل نجحت بذلك وما زاد فرحتي أني جعلتها تفكر باعتناق الاسلام. لقد شعرت بالراحة من أحاديثنا عن الدين الاسلامي، وفي ذلك اليوم صرحت لي بحبها وأنها تنوي اعتناق الاسلام والزواج بي. شعرت بسعادة غامرة. لقد جعلت مني تلك الفتاة شخصًا مختلفًا يا بخاتي. كانت كل الألوان وكل العطور. حتى ذلك اليوم على الرغم من سعادتي بما قالت، شعرت بشيء يعتصر قلبي ولم أدرِ ما هو. كان يقبض على قلبي ويعتصره. حاولت البقاء معها مدة أطول ولم أكن أعلم أنها المرة الأخيرة. لقد مات كل شيء في ذلك اليوم بعد أن قُتلَت.

نهض بخاتي وهو يقول:

– ماذا؟ وكيف حدث ذلك؟

لم ينظر له عثمان لكنه رفع رأسه للسماء واغرورقت عيناه بالدمع ثم قال:

– قُتلَت. قتلوها بلا ذنب حتى أني لم أعرف من فعل ذلك حتى يومنا هذا، ويا ليتني عرفت لأقتص لها! لقد ذبحوا قلبي، ذبحوني وأنا على قيد الحياة. أنا مثلك تمامًا يا بخاتي، لقد اعتصر الفقد قلبي، أنا أتألم مثلك يا بخاتي.

انفجر بالبكاء مرة أخرى وهو ينظر صوب السماء ثم صرخ وقال:

– لماذا تختبرنا يا الله بالفراق؟ لِمَ كل هذا الألم؟ يا الله، كم هذا الفراق مؤلم!

انهار مرة أخرى ولم يستطع بخاتي التقدم نحوه ولا مساندته حتى بكلمة. كلاهما

يحمل نفس السكين في قلبه. الآن فطن لحزن الشيخ حينما كان يحدثه عن بولخاريا، الآن فقط شعر بما يحمله من عبء يرهق قلبه.

قبل أن ينهض أيّا منهما من حالة حزنه، سمعوا صوت جندي وهو يركض صوبهما مسرعًا يقول:

– أسرعا! لقد عبر جيش المأمون بشمور.

لتنقلب الأجواء على الجميع.

*****

الهلع محرك قلوب الضعفاء، ظل الأطفال والنساء خاصة وإن كان خوفًا من الموت لكنه لا يعرف لقلوب الأبطال سبيلًا. أولئك الذين حملوا رؤوسهم على أكفّهم في سبيل الدفاع عن حقوقهم. أولئك من يصمدون على الأرض بعد أن يعطروا صدورهم بدم الهلع الخبيث.

انهار خط دفاع البشامرة الأول بعد عبور الأفشين والمشاة دروب الأرض الموحلة، بعد أن نجحوا في تهديد بعض الأدِلّاء ممن لهم دراية كافية بتلك الأرض فقد خسر فيها الأفشين الكثير من جنوده في بادئ الأمر. كذلك التفرقة التي اعتمد عليها المأمون في زرع الرعب في قلوب كل من حاول دعم الثوار فقل عددهم وتزعزعت قلوب البعض الآخر. والآن بعد سقوط خط الدفاع وانسحاب الكثير، أصبح على البشموريين مواجهة الموت أو الرضوخ للمأمون.

نهض عثمان بسرعة، يجري ومن أمامه بخاتي حيث تجمع المقاتلون للتسلح. ما أن وصلا إلى مكان الأسلحة حتى جذب بخاتي درعًا من الخوص وسيفًا. تبعه عثمان الذي جذب سيفًا وفأسا وضعه في جانبه الأيسر تحت رباطه وهرعا نحو مصيرهما المجهول.

صوت القرع وتلاحم السيوف كان يقترب بشكل مخيف امتزج فيه صراخ البعض، وفي لمح البصر ظهر مشاة المأمون يحملون السيوف اللامعة بثيابهم ودروعهم وعلى رؤوسهم خُوَذ معدنية، وبدأ التلاحم من بعيد مع الأبطال.

الشجاعة هي أقوى سلاح يحمله البطل، يحرك السيف، يكسر الرماح، ويتفادى السهام والمطارق. حينما تتحدث عن الشجاعة عليك أن تتبعها بالبشموريين، القساة الغلاظ الذين عمد إليهم الأموي والعباسي في الكرّ

والفرّ لكنهم دون ذلك قومًا بسطاء اعتمدوا في عيشهم على أوراق البردي وصيد الأسماك وتمليحها. تراهم من بعيد فتجهل هوية شجاعتهم.

أصبح الطريق مفتوحًا لجنود الأفشين للتوغل داخل النجوم بعدما وضع يده على الأريسية ومن بعدها ترنيط، ففعل بهما ما فعل وقتل من قتل، ولم يترك للأخضر في طريق مكان فقد حرق بيوتهم وهدم كنائسهم وسبا كل من طالت يده من النساء فكان ذلك مرعبًا للبعض، والآن حضر ومن فوق رأسه النسور تحوم في السماء تترقب طعام اليوم.

لقد رفض الأبطال الاستسلام وفتحوا صدورهم للموت لا غيره. بدأت الجنود تغزو الساحة والأبطال في دفاع عن حياتهم. أسقطوا من رجال العباسي الكثير لكن عددهم كان قليلًا خاصة مع تراجع من بقي في ترنيط للحماية في خطهم الأخير.

نظر بخاتي على يمينه ليجد عثمان يتحرك بخفة وفي يده السيف، يبارز أحد الجنود حتى صرعه، ورجاله من حوله وقد فعلوا نفس الشيء أما بخاتي فلم يرفع سيفه حتى ذلك الحين. لقد وقف مذهولًا من اندفاع عثمان. ربما ما قصّه عليه قبل قليل ولّد داخله بعض الغضب فكان ككتلة من نار تحرق كل من اقترب. فجأة اقترب أحد الجنود منه يحمل سيفه وقبل أن ينزل به على بخاتي هجم عليه بجسده المفتول فأوقعه أرضًا ثم استدار لرفع سيفه بخفه وأطاح بذراع الجندي وبدأت الدماء ترسم خريطتها على جسده فنهض بسرعة ونظر أمامه ليجد يوسف.

جحظت عيناه. كيف ذلك؟ لقد قتله في بلبيس أمام العامة فكيف له أن يكون هنا حيًّا؟

فجأة وجده وهو يجذب من خلفه وشاح بولخاريا الأبيض ويبتسم بتحدي. هنالك استشاط جسد بخاتي فرفع سيفه وبدأ يلوح به يمينًا ويسارًا دون توقف، وكلما وقف في طريقه أحد الجنود شق جسده بضربة واحدة حتى اقترب من يوسف لكنه اختفى.

فجأة نظر خلفه فوجد جوادًا يركض نحوه بسرعه وعلى ظهره فارس ملثم. ما أن اقترب حتى طار لثامه ليكشف عن وجه يوسف فركض صوبه وهو يصرخ:

– سأقتلك ألف ألف مرة يا يوسف.

ما أن اقترب حتى قفز في الهواء ليضرب بسيفه رأس الفارس فطارت من على كتفيه، وقبل أن ينظر خلفه أمسك لجام الجواد وسيطر عليه بصعوبة. بدأ يضرب جسد الفارس الصريع ضربات متتالية حتى سقط ثم امتطى جواده فنكزه بقوة وبدأ يصرخ مرة أخرى ينادي يوسف، وسيفه يطيح بكل من قابله.

كان وجه يوسف قناع كل من وقعت عيناه عليه. لقد مات يوسف منذ زمن لكن الغضب لم يمت. كان ذلك المشهد غريبًا لكل من نظر إليه من بعيد. سيفه يبرق في النهار ويعود بخيط من الدم، وصوت صراخه بيوسف يهز الأرض. من شعر بقوة ذلك كان عثمان الذي كان يركض متجهًا صوب أحد الجنود حينما قتل أحد رجاله، وقبل أن يصل إليه كانت رأسه قد طاحت في الهواء. لقد حصدها بخاتي فوقف عثمان وجحظت عيناه من ذلك المشهد. لقد شعر بغضب بخاتي للمرة الأولى منذ أن التقاه.

فجأة ركض بجواده صوب تجمع من الجنود. صدمهم بجواده وفي تلك اللحظة

اختل توازنه فوقع. ركض عثمان صوبه وهو يدفع بكتفه كل ما في طريقه. وجده يقف بسرعة وهو يصرخ قائلًا:

– بشاي، لا!

هجم على أحد الجنود حين حاول النهوض هربًا من ذلك المجنون لكنه فشل مع سرعة وغضب بخاتي الذي طعنه في صدره ليخرج النصل من ظهر الجندي والدماء تفور منه لكنه لم يكتفِ بذلك فأخذ يضرب الجندي بالنصل مرات ومرات وهو يصرخ. قبل أن يصل عثمان صوبه وجد أحد الرماة يشد قوسه الذي صوبه نحو جسد بخاتي. أسرع عثمان الركض وصرخ قائلًا:

– بخاتي، انبطح أرضًا!

في تلك اللحظة لمحه بخاتي وهو يركض لكنه لم يسمع ما يقول. التف بجسده صوب عثمان الذي ترك السيف من يده وقفز فوق الجثث ليحتضن بخاتي ويلتف حول نفسه.

فجأة سمع صوت عثمان يتأوه وقد ارتعشت يداه اللتين احتضنتا جسد بخاتي وترنح. رفع بخاتي رأسه ليجد عيني عثمان تدمعان وعلى وجهه ابتسامة وقال بصوت واهن:

– لقد دفعت ديني أخيرًا. انقذت حياتك.

لم يفهم بخاتي كلمته. فجأة لامست كفّه سهمًا انغرس في ظهر عثمان فجحظت عيناه. لقد فهم مقصده. لقد تلقى عثمان السهم قبل بخاتي فأنقذه. نظر خلف ظهر عثمان ليجد نفس الجندي يسحب سهمًا آخر ليصوبه نحوه، وقبل أن يفعل ذلك نظر حوله فوجد أحد المزاريق في يد أحد

الجنود الصرعى فالتقطه ووضع عثمان على جنبه ثم اعتدل وفتح قدمه اليسرى ليثبت قدمه وصوّب المزراق بقوة ليسبح في الهواء ويستقر في صدر الجندي.

عاد بخاتي بلهفة لينجد عثمان والدموع تسيل من عينيه وصرخ:

– لماذا يا عثمان؟ لماذا فعلتها؟

كان يبتسم وهو ينظر إلى بخاتي الذي حمله بسرعة وركض به إلى مكان بعيد عن ساحة القتال فذهب صوب نفس البيت الذي باتا فيه ليلة أمس. وضعه على جانبه وأسرع يحضر خرج عثمان ليخرج منه بعض أوراق التوت البري وحُقّ الدهان محاولًا ايقاف سيل الدم. ما أن احضره حتى جلس على الأرض محاولًا نزع السهم من جسد عثمان لكنه صرخ فيه وقال:

– لا! لا تسحبه يا بخاتي! اتركه فقد نفذ يا صديقي!

رفض بخاتي سماع كلماته وحاول لكنه نهاه مرة أخرى وهو يتأوه، وقال:

– لقد ضرب القلب يا بخاتي. سأموت إن تحرك.

حاول بخاتي مرة أخرى لكن يده ارتعشت فاستجمع قواه وبسرعة سحب السهم من جسده وحينها صرخ عثمان بقوة وقال:

– كان عليك أن تتركه لأموت. أريد الذهاب هناك.

أسرع بخاتي بشق الثوب عن ضهره وأخذ يمسح الدم بخرقة قطعها من ثوبه ثم بدأ يدهنها بالدهان ووضع عليها ورق التوت البري وسط صراخ عثمان ثم

وضعه على فخذه وضمه وهو يبكي قائلًا:

– لا تتركني أنت أيضًا يا عثمان، أرجووووك!

نظر إليه بوهن والابتسامة تعلو وجهه لتختلط بعلامات الألم وقال:

– هذا أمر الله يا رفيق الرحلة. الآن سددت ديني وأنقذت حياتك. لم يعد هناك شيء يبقيني على قيد هذه الحياة.

تأوه بوجع وهو يشد بيده على يد بخاتي وأكمل:

– منذ التقينا حاولت أن أزيح الغيم عن بصيرتك. حاولت أن أنظف صورة الاسلام في قلبك فالدين بريء من أفعالهم. حا.. حاولت أن أحبب الدين إليك لعلّ صدرك ينشرح للإسلام فتتبعه عن قناعة لـ.. لكنني لم أُكمل تلك.. المهمة. لقد كانت صحبتك شرفًا لي أيها القبطي الشجاع..

لم يستطع إكمال جملته فأخذ يسعل بقوة وبخاتي يصرخ:

– لا! عثمان، أرجوك!

قبض عثمان على يده بقوة وقال:

– لا تقطع فعل الخير، وكن في عون الناس! لا يزال الطريق طويل يا رفيق. لا..

زاد سعاله وبدأ صوته يضعف فقد كان ينزف بشدة دون أن يشعر بخاتي لكنه استجمع قواه وفتح عينه بقوة وقال:

– سيبقى الخير في هذه الأرض ما دمنا على قلب واحد.. حتى وإن غرقت بدماء أبناءها ستبقى. اذكرني بالخير عند كل جمع تجده يا.. بخاتي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

ارتخت يد عثمان وبدأت تترك يد بخاتي حتى سقطت وسقط معها رأسه لتفيض روحه، ليذهب دون عودة. هناك صرخ بخاتي بصوت شق الأرض:

– لا! عثمان!

لتعلن تلك الصرخة عن موت الشيخ.

*****

سقطت النجوم.. لتكون تلك نهاية ثورة الأقباط بعدما عمل المأمون فيهم ما عمل من قتل وذبح، أثبت فيها البشموريين أن الشجاعة هي أعظم أسلحة البشر لكنهم كانوا قلة وبلا سلاح. غلبتهم الكثرة المسلحة ليقع إِقْلِيم بشمور بعد عناء في يد العباسيين فأعلنوا بحرقهم البيوت وهدم الكنائس عن نهاية الثورة، وباتت الأرض مبللة بدم الأبطال ومن بعدها دموع الثكالى ممن وقعن في أسر العباسيين.

لم يحل ليل ذلك اليوم فالنيران جعلت من ليل أرض النجوم نهارًا والصراخ كان يملأ السماء فأصبحت في نهار واحد حطامًا ترويه الدماء وتشعله النيران، ولم يبقَ من البشموريين إلا قلة تحصنوا بجزيرة وسط الأرض الموحلة، ينتظرون حتفهم مع طلوع الشمس.

في تلك الأثناء كانت هناك نار أخرى مشتعلة في جسد بخاتي. لقد تجمد مكانه وهو يحمل جثمان عثمان على فخذيه والدموع تغسل وجهه. رفع رأسه تجاه البيعة ليجدها مهدّمة والنيران قد اشتعلت فيها من كل جانب فزاد بكاؤه. عاد لينظر إلى عثمان وبدأ يرج جسده ويضربه بيده على خده قائلًا:

– انهض يا عثمان! لقد رحلوا. لقد هدموا البيعة وحرقوا البيوت. عثمان!

ارتفع صوت بكائه وهو ينادي عليه بين الحين والآخر ثم سمع صوتًا يهمس في أذنه:

– ألم الفقد أصعب أنواع الألم المعنوي، يصيب قلبك في عمقه ولم يجدوا له ترياقًا حتى الأن ولن يجدوا فهو ليس بألم عضوي يا بخاتي.

نظر إلى يمينه بسرعة. لقد كان ذلك صوت عثمان فوجد طيفه يجلس على

مقربة منه وحوله هالة بيضاء غشي عينيه بريقُها. لقد كانت تلك نفس الجملة التي بدأ بها عثمان آخر حديث بينهما قبل أن يفديه بحياته، حينما قصّ عليه عن ألم الفراق في البيعة، وقبل أن يتحدث إليه لم يجده.

شريط الذكريات مرّ على عقله. كيف أحب بولخاريا وكيف فاز بها، يوسف وقتله رضيعه، بشاي وقتله زوجته لكن قلبه أحس بألم شديد حينما تذكر كلمات عثمان الأخيرة. كانت رحلة قصيرة لكنها حملت الكثير من اللحظات وصداقة مع مسلم لم يرَ مثله في حياته كلها، لهذا أبت الدموع أن تجف. الحزن اعتصره وقلبه بات ممزقًا بعد كل تلك النكبات. تساءل في نفسه «لماذا لم أمت معهم جميعًا؟»

انسلخ النهار من ظهر الليل الحزين لكن الشمس أبت أن تظهر من خلف الغيوم، والسماء كانت تبكي بين حين وحين قطرات من المطر لم يشعر بها بخاتي الذي لا زال مكانه، يحمل جسد عثمان.

في تلك الأثناء بعث المأمون رسله للبشامرة الناجين من المعركة. طلب منهم مغادرة البلاد واختار لهم انطاكية، المدينة الوحيدة التي تحوي بيعة للقبط، وما أن وصلوا للبشامرة حتى وجدوهم قد تحصنوا في جزيرة تحيطها المياه من كل جانب، فما أن سمعوا رسالة المأمون حتى أرسلوا له ردًا:

(لا نستطيع الخروج من بلادنا، وإن خرجنا كيف نعيش؟ إننا نرتزق من الصيد وأوراق البردي. ما فعلناه كان من سوء معاملة ولاتك والمحتسبين. لقد نظرت لنا كثوار على حكمك ولم تبحث في سبب ما فعلنا. إن كان ما فعلنا أغضبك فهو من أفعال رجالك فأصفح عنا واتركنا في ديارنا).

لمّا وصل ذلك للمأمون وبّخ عيسى بن المنصور وقال له: «لم يكن ذلك

الحدَث العظيم إلَّا عَنْ فِعلك وفِعل عُمَّالك. حمَّلتم الناس ما لا يُطيقون وكتمتموني الخَبر حتى تفاقم الأمر، واضطربت البلد»[٧] ثم أمر بعزله لكنه لم يتراجع عن خروج البشموريين من مصر، فرجع رسله لهم بأمر مغادرتهم البلاد وإلا أهلكهم، وبالفعل رضخ الأبطال لمطلب المأمون رغمًا عنهم، وحانت لحظة الخروج.

*****

٧- الخطط المقريزية الجزء ١
الولاة و القضاة لأبي عمر الكندي
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري

دفن بخاتي عثمان في أرض بشمور مع الأبطال بعدما طلب من بعض من تبقى من المسلمين أن يساعدوه فقد وصله خبر خروج أهل بشمور من مصر، وجمع كل من ساعدهم من القبط على سفنٍ إلى انطاكية. انفطر قلبه حينما سمع ذلك. كيف سيترك أرضه؟ كيف يترك ذكرياته مع بولخاريا وعثمان؟ ما أن انصرف الرجال حتى جلس على ركبتيه أمام قبر عثمان وبدأ يبكي وقال:

– يقولون إنني سأذهب مع البشموريين لأنني قبطي. بولخاريا قالت لي لا تترك عثمان أما أنت فتركتني وذهبت أيضًا، واليوم أنا سأذهب لأقضي ما بقي لي وحيدًا دونكما وبعيدًا عن مكان قد اجتمعت فيه بكما. كيف سأفعل يا عثمان؟

نظر إلى السماء وبكى بمرارة على فراقه ثم قال:

– يكفي! لا تختبرني بالفراق بعد الآن! اقبض روحي لأكون معهم جميعًا!

نهض وتحرك للخلف وعيناه لا تزالان على قبر عثمان ودموعه لم تجف لحظة. حتى قدماه كأنهما معلقتان بالأرض. حينما اقترب من الجمع جذبه أحد الجنود من كتفه ودفعه نحو الجمع لينضم إليهم لكنه لم يفعل شيئًا واكتفى بالنظر لقبر عثمان، نظرة الوداع.

رحل الأبطال عن أرض بشمور في طريقهم إلى الفارما وسط حراسة جند المأمون في مسيرة يومين لم يذق فيها بخاتي طعم النوم ولا حتى الزاد، وشريط الذكريات كان رفيقه. لم يتحدث مع أحد ولم يرد على أحد أيضًا. كان جسدًا قد سلبه الفراق روحه.

كالدواب ساق الجنودُ الأقباطَ في طريقهم، تقيدهم الحبال والبكاء لم يكف. أما بخاتي فقد سبح في بحر قبل البحر المنشود، بحر ذكرياته في كورته. ذكرياته مع زوجته ومع عثمان. نظر عن يمينه ليجد بولخاريا تسير على مقربة منه. همس لها قائلًا:

– المرة الثانية التي أتخاذل فيها وأترك يدك لكن هذه المرة سأذهب لأرض غير الأرض وعالم غير العالم، ولا أدري هل من عودة! أنا لا أريد العودة حقًا بل أريد اللحاق بكم.

كان طيفها ينظر نحوه ولم ينطق. حتى أنها لم يبدُ على وجهها أي شيء، وقبل أن يستطرد سمع صوتًا عن يساره يقول:

– لا تحزن يا بخاتي! لن نتركك وحدك حتى لو كنت في أرض غير الأرض وعالم غير العالم.

نظر ليجد عثمان يسير بجواره فوقف، وقبل أن ينطق وجد طيف عثمان يرفع يده ويضعها على كتف بخاتي كما كان يفعل دائمًا واختفى.

طريق ليس بقصير قطعه بخاتي وسط الطيف والدموع تغرق جبينه. على الرغم من قساوة الجنود إلا أنه لم يكن يشعر. لقد مات شعوره معهما. إنه جسد بلا روح تطارده الأطياف أو ربما تؤنس غربته وسط الذكريات التي كانت تنهش عقله دون رحمه. كان يرى ماضيه في كل مكان وعبر كل طريق كظله.

وصل الجمع ميناء الفارما. وقفوا على مقربة من الشاطئ والنحيب طغى على صوت البحر. كل ينتحب على فراق مختلف. منهم من ينتحب على أرضه ومنهم من ينتحب على فقيد، وبخاتي وقف ينظر إلى السفينة والدموع تُذرَف

من عينيه دون أن ينطق. كان يحك كفه في صدره. الفراق كان يعتصره بشدة. نظر إلى السماء وقال:

– هل كان ذنبي يستحق كل ذلك التكفير؟

لم يمهله الجند الوقت ليكرر سؤاله فبدأوا بدفعهم كالدواب ليصعدوا على ظهر السفينة وصوت النحيب يرتفع. صعد الأبطال على ظهرها واستداروا ليلقوا الوداع على بلادهم العجوز، مصر.

وقف بخاتي ينظر نحو الشاطئ بينما السفينة بدأت بالتحرك. قلبه كاد يخرج ليعود الى الشاطئ. فجأة ظهر عثمان على الشاطئ في نفس الهالة البيضاء والابتسامة الجميلة وقال لبخاتي:

– سأبقى هنا أنتظرك يا رفيق الرحلة. عد بسلام وليحفظك الله!

حينها أمسك بخاتي بسور السفينة وصرخ قائلًا:

– عثمان! لا تذهب! لا تذهب!

ثم نظر إلى السماء وأخذ يبكي ويقول:

– لماذا؟

ثم جلس على الأرض، ينتفض من البكاء لكنه سمع صوتًا عن يمينه يهمس قائلًا:

– لا تبكِ يا عزيز القلب! لن نفارقك حتى لو كنت في بلاد بعيدة. ستبقى روحانا تطوفان حولك، لكنك ستعود إلى هنا يومًا ما. فليحفظك الرب يا

بخاتي!

نظر بسرعة فوجد بولخاريا تبتسم وهي تلوح له بكفها ثم غابت.

نهض بخاتي ينظر مرة أخرى نحو الشاطئ فوجدهما يلوحان له من بعيد، فرفع يده في تثاقل وبدأ يهز يده لهما بتحية الوداع.

دفع الضعفاء ثمن طمع الأقوياء فلا بد من بعض الدماء حتى تستمر الرحلة، حتى تبقى الولاية، حتى يخاف من سيأتي بعدهم ويسمع خبرهم. رحل أهل البلاد ليتركوها للغرباء كي ينعموا بها، ولتكون قصة بطولة البشموريين أُنْشُودَة على لسان أهل مصر، وتهديدًا على لسان من حكمها. على الرغم من ذلك فقد كتب تلاحم المصريين سطرًا خلده التاريخ. تلاحم مسلميها وقبطها في وجه الظلم فرفع كلاهما يده لأعلى قائلًا:

«الدين لله.. و الوطن كان يجب أن يكون للجميع».

تمت بحمد الله

المراجع

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار:
(تأليف أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين المقريزي)

.....

أقباط و مسلمون (تأليف جاك تايجر)

.....

تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري

....

كتاب الولاة و القضاة:
(تأليف محمد بن يوسف بن يعقوب أبو عمر التجيبي الكندي)

....

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:
(تأليف أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن سيف الدين تغري بردي الأتابكي)

....

موقع الأنبا تكلا هيمانوت

....

الفهرس

تمهيد	٨
الفصل الأول	١٠
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٢٤
الفصل الرابع	٣٠
الفصل الخامس	٤٠
الفصل السادس	٥١
الفصل السابع	٦١
الفصل الثامن	٦٧

الفصل التاسع	٧٧
الفصل العاشر	٨٧
الفصل الحادي عشر	٩٧
الفصل الثاني عشر	١٠٤
الفصل الثالث عشر	١١٤
الفصل الرابع عشر	١٢٥
الفصل الخامس عشر	١٤٠
الفصل السادس عشر	١٥٤
المراجع	١٨١